ANCORA IMPARO



يوليه ١٩٢٨ شعاع الحكمة يجذبنا اليك العدد ١١ مجلد ٢

حرية الفكر

١ — تعريفها — ٢ — حرية الفكر والسلطة الحكومية — ٣ — هل للسلطة التشريعية أن تتدخل في حرية الفكر ؟ — ٤ — كيف يجب أن نفهم حرية الفكر ؟ — ٥ — النتيجة

— ١ —

ليس لنا أن نحدد حرية الفكر (١) بأكثر مما حددها به الأستاذ « الفرد وليم بن » — في كتابه « تاريخ حرية الفكر في انجلترا خلال القرن التاسع عشر » . فان التحديد الذي وضعه هذا المؤرخ لايزال حتى اليوم العمدة عند المشتغلين بفلسفه العلوم الانسانية قال :

« إذا كان معنى الكلمات يستمد دائماً من جهة اشتقاقاتها ، فان اصطلاح « راشيونالزم » Rationalism يمكن أن يحدد بأنه الاسلوب أو المذهب الذي يتبعه أولئك الذين يعمدون دائماً الى العقل ليكون المنظم الأول لمعتقداتهم

(١) نقصد بحرية الفكر هنا مايصرف عليه الانجليز كلمة Rationalism وأفضل تعريب هذا الاصطلاح « الاسلوب العقلي » وأصحابه « العقليون » أي الذين يحكمون العقل دون غيره من الصفات والمواهب الانسانية .

وأعمالهم . الذين يحملون أنفسهم على أن يفكروا بأسلوب ويتكلموا بتعبيرات لها أكبر آصرة وأقرب علاقة بمحسوسات عرفت مفصلاتها ودقائقها . الذين لا يثبتون شيئاً مادام مخالفاً لما صح عندهم من الحقائق المقررة ، ولا يأنفون من قبول النتائج المنطقية التي تقتضيها الحقائق الثابتة ، مهما كان في هذه النتائج من مكاره ، ومهما كان فيها من بعد عما كانوا يعتقدون به من قبل . الذين يرغبون رغبة صادقة في أن لا يأتوا من فعل ، ما لم يكن له مبرر من غاية محددة يعونها ويبتعدون عن الاتيان بأى فعل تتصارع من حوله الغايات ، ويتنكبون أى عمل اذا عارضت وسائطه تلك الاغراض التي يجهدون أنفسهم في سبيل الوصول إليها »

ولا جرم أن حرية الفكر أو الأسلوب العقلى ان حدد هذا التحديد لم نجد في الناس من يحاول أن ينقض أساسه أو يقوض بنيانه . فان الجرى على هذا الاسلوب لدى الواقع جرى على ما تقتضيه أنظمة العقل الانسانى وكفاياته ، وتمجيده تمجيد للعقل البشرى ، الذى هو في الحقيقة أرقى ما وصل اليه تطور الكون من النظامات العضوية وغير العضوية .

واذا جرينا في تحديد حرية الفكر — أو الاسلوب العقلى — على ماوضع العلامة « بن » من تعريف ، استطعنا أن ندرك من أحرار الفكر أو العقليين أنهم تلك الفئة من المفكرين الذين غذوا في أنفسهم تلك الكفاءة العقلية بغذاء هو خير ما يفصل بين الانسان و بين السوائم . تلك الكفاءة التى ان فقدها شخص فقداناً جزئياً استحق من بقية أفراد النوع البشرى أن يرمى بالاحتقار ، وأن فقدها فقداناً كلياً استحق أن يكون موضع الرحمة والشفقة .

ولقد ظهر العقليون — أو أصحاب الاسلوب العقلى — الذين جروا على الطريقة التى عرفها الاستاذ « بن » في كل عصر من عصور التاريخ منذ أن ترامى من الفكر الانسانى أول شعاع حاول أن يشق للبشر في ظلمات العالم المجهول طريقاً .

ظهر هؤلاء فى عصور التاريخ غير المكتوب ، كما ظهر فى أفراد النوع البشرى رواد ذللوا طريق الارتقاء ومهدوا سبيل النشوء في كل مامست اليه الحاجة من

مرافق الحياة . غير أن أول رواد الطريقة العقلية هم لدى الواقع أمجد ما أخرج النوع البشرى من خلاصة الافراد . لانهم باتباعهم هذه الطريقة لم يستكشفوا أشياء مادية ينتفع بها النوع فى حياته العامة أو الخاصة ؛ بل استكشفوا العقل الانسانى نفسه وعرفوا له مكانته فى نظام الاشياء الانسانية . ولا نكون مبالغين مطلقاً اذا قلنا بأن هؤلاء هم الذين استكشفوا الانسان ، لأن تاريخ الانسان هو تاريخ العقل بمبتكراته الفذة ووثباته الكبيرة التى وثبها نحو العوالم المجهولة التى كانت تحيط به فى حياته الاولى.

ان رواد العقل البشرى في كل عصور التاريخ هم أجدر أفراد النوع بأن يحوزوا ذلك المجد الكبير الذى ليست مدنية هذه الايام إلا أكبر مظهر من مظاهره . وهم فوق ذلك أول من رفع فى وجه التقاليد سيف العقل القاطع وسنانه المرهف اللامع . وهم الذين أضاؤوا بأنوارهم فى ظلمات الجهالة فبددوها ورفعوا صوتهم فى همود الاجتماع فحركوا منه ما أربت عليه السنون والايام وهو ساكن لا يتحرك . هم الذين ذاقوا آلام الوحدة والانفراد برأى أو مذهب رأوا أنه الحق، وهم الذين نزلت بهم مظالم الظالمين عتواً وكبراً ، وذاقوا من الموت والجوع والفقر ما نعده اليوم أكبر كفارة أداها النوع البشرى عما آمن به من سخافات ، وما اعتقد به من أوهام ، على طول الاجيال والدهور .

وقد انقضت السنون وتتالت الاعوام ، بل كرت الدهور ومرت العصور ، لا تزال الموقعة حامية الوطيس بين العقل و بين الوهم . على أن الدم الذى أراقه أول ظالم فى سبيل أن يخفت صوت العقل ، لايزال الى اليوم يجرى فى عروق الاعقاب الذين لم يخفهم أن تجرى دماؤهم فى مجرى دمه ، وأن تزهق حياتهم كما زهقت حياته . وكذلك الذين أراقوا ذلك الدم الزكي ، لايزال لهم من الاعقاب الذين تنقلت بهم منازل الوراثة الى القرن العشرين ، من تحكم المشاعر الهوجاء في عمالهم ، وتفعل أذرع الفعل فى توجيههم من الحياة وجهة لا يرضي عنها العقل ولا تقرها الفضيلة في منزلة من منازلها . هم الى اليوم أعداء العقل ، أعداء الانسان الانسانية . هم إلى اليوم أنصار الخراب والدمار . هم حتى الساعة أرباب الجهالة

والعقم ..هم أشباه بنى آدم فى القوام والتقويم ، وأبعد أبناء آدم عن الانسانية كما حدد معناها الاستاذ « بن » بأنها « العقل » الحر المبرأ عن تضحية العقل لغيره من منازع الاهواء الانسانية .

***

— ٢ —

إذا أردنا أن ننتقل من تعريف حرية الفكر وما كان من أثر العقليين فى ترقية النوع الانسانى ، وأردنا أن نتكلم فى حرية الفكر والسلطة الحكومية ، فانا لا نجد من بيان أبلغ من بيان الفيلسوف الكبير « برترند رسل » لدى كلامه فى « حرية الفكر ونشر الدعوة الحكومية » . لهذا نرجع اليه لننقل عنه الآتى : قال

« إن من بيدهم نظم التربية لا يعملون على نشرها . بل على العكس من ذلك يحاولون شحن الرؤوس فقط ، ولا يهتمون بتربية الفهم . مع أن للتربية مقصدين أحدهما علم مقرر هو عبارة عن القراءة والكتابة واللغات والرياضيات الى غير ذلك ، وثانيهما خلق أساليب فكرية يتمكن الناس بها من المعرفة ومن الاستنتاج لأنفسهم بطريق العقل . ويسمى المقصد الاول علماً ، والثانى فهماً . وفائدة العلم مسلم بها من الوجهتين العملية والنظرية . لأن تكوين أمة متحضرة على النمط الحديث مرهون على وجود مجموع متعلم . وأما الفهم فان السياسيين لا يسلمون الا بفائدته النظرية فقط ، لانه من غير المرغوب فيه عندهم ، أن يفكر الناس لأنفسهم . ذلك لأن حكم المفكرين واخضاعهم عمل شاق »

« قال أفلاطون — « الاوصياء وحدهم هم الذين يجب أن يفكروا . أما العامة فعليهم اتباع قادتهم مثل قطيع من الغنم » وهذه هى الفكرة السائدة في عهد الديمقراطية السياسية في هذا العصر ، والتى أفسدت نظم التربية الوطنية »

هذا فيما يرى العلامة « رسل » من تحديد طرق التربية على الصورة التى عكفت عليها الحكومات . أما في تحديد الفهم واتباع مطاوعات الشك فقد قال :

« ليست حرية الفكر الدينية وحدها هى التى تلاقى كثيراً من العقبات .

فان استحسان الشخص للباشفية أو الاباحية مثلا ، يسبب له متاعب لاقبل له بها . والأدهى من كل هذا أن الحصول على بينات أو براهين تؤيد هذه الافكار يكاد يعد من المستحيلات . بيد أنك تجد الحال على مثل ذلك تماما في روسيا حيث يمتنع على الناس العثور على بينات تضاد نظريات الالحاد والبلشفية والاباحية »

« وكما يوجد فى بلاد روسيا متعصبون يسلمون بصحة نظريات لاتزال فى دور البحث تسليما أعمى ، تجد في بقية العالم متعصبين يسلمون بصحة ماينافض اعتقاد هؤلاء تسليماً لا يحتمل الشك أو الجدال . فذلك التعصب وهذا التسليم، هما منشأ الحروب وسوء التفاهم وأصل الاضطهادات التى يتذرع بهما كل من الفريقين .

« لقد دافع وليم جيمس عن نظرية « الميل الى الاعتقاد » . وأنا بدورى أدافع عن نظرية الميل الى الشك . لان كل مانعتقده يتضمن إبهاماً وأخطاء . ولا يوجد اعتقاد تام الصحة على اطلاق القول ، فيجب علينا اذن أن نصغى الى بينات الغير لنتثبت من الوقائع التى نتجادل فيها ، ولكي نكون على استعداد تام لترك ما يثبت خطؤه . هذه هى الاسس التى قامت عليها العلوم . فكل العلماء والمشتغلين بالعلم على استعداد تام للقول بأن ما يعلمون به معرض للاصطلاح والتحوير على مقتضى ما يجد من مناحى النظر أو الاستكشاف ، وأن أقرب النظريات الى الصحة أصلحها للتعبير عن أمور أكثر . وكل الافكار قابلة للشك بالضرورة »

« أما السياسة والدين فعلى الضد من العلم ، يعاقبان كل من يحاول اظهار الحقيقة بالسجن والاضطهاد والحرب ، ويمنعاننا عن سماع بعض البينات واسماع ما نراه من الآراء . على اننا لو حكمنا العقل لزالت تسعة أعشار المصائب الموجودة ، ولتعذر وقوع الحرب ، لانه من الهين على من يحكم عقله أن يرى خطأ كل من الحزبين المتنابذين . أما الاضطهاد فلا محالة يمحى أثره حينما يصبح هم التربية محصوراً فى العمل لما يؤدى الى توسيع الافهام لاتضييقها . اذ ذاك يقوم بالاعمال أقدر الناس عليها ، لا أكثرهم تملقاً للرجال المسيطرين » .

وضرب الفيلسوف « رسل » على ذلك مثالا فقال :

« ان للطبع العلمى جلالا ظهر حينما استقبل أهله نظرية النسبية. فهذا انشتين اليهودى — الالمانى — السويسرى ، والذى عينته الحكومة الالمانية أستاذاً للمباحث في أول أيام الحرب . طرح نظريته للبحث وأثبتتها البعثة العلمية البريطانية حين رصدت كسوف الشمس سنة ١٩١٩ . ومع أن نظرية النسبية قلبت أساس العلم الطبيعى رأساً على عقب ، فاننا لم نر من العلماء الا أتم استعداد لقبولها ، عند ماثبتت صحتها . هذا لانه لم يدع أحدهم ، ولا انشتين نفسه ، بأن كلمة الفصل قد قيلت فى هذا الصدد ، ولم يزعم زاعم بأن انشتين قد أقام بناء غير قابل للهدم أبد الدهر . ذلك لشعورهم بأن أمامهم مالايزال حله متعذراً . فالنظرية لا تزال معرضة للتحوير والتكييف ، وقبول العلماء لها غير مقطوع به. هذه هى روح العلم وصبغته »

« أما اذا كانت هذه النظرية نظرية دينية أو سياسية اذن لاستشم منها الانجليز ريح الجرمانية ، وعارضو البلشفية مبادىء الصهيونية ، والوطنيون طريق الهروب من الخدمة العسكرية . ولقام زعماء النسق القديم الى ادارة البوليس يلحون على السلطات لكي تحظر تداول ما ينشر من براهينها المثبتة لصحتها ، ولفصل عن مقاعد التدريس فى الجامعات المستمسكة بالقديم كل من أخذ من الاساتذة بالفكرة الجديدة . واذا فرض وكان انشتين قد استمكن من التحكم فى ناصية شعب منحط غير ذى حضارة ، اذن لفعل جهده ليحظر على الناس قراءة كل مايخالف نظريته من التعاليم ولعدت نظريته بديهية مقطوع بصحتها دون موازنة بين مالها وما عليها من البينات . أما اذا أريد الموازنة بين المقتضيات في ميدان أفسح ، فهنالك الساحة التى تفصل فيها المدافع والبنادق فى صحة مايدعيه كل من الحزبين . هذه هى النتيجة المنطقية لنظرية وليم جيمس القائلة بحاجتنا الى « الاعتقاد » ولكنى أقول ، كما قلت سابقاً ، أننا في حاجة الى الشك »

تجد فى هذا مجمل ما تتبع الحكومات من سياسة أزاء حرية الفكر . فمعاهد التربية تقوى المعرفة ولكنها لاتعمل أبداً على تجويد الفهم . ولقد وجدت

الحكومات أن فى هذا الأسلوب رحمة كبيرة ، فان حكم مجموع تكثر معارفه ، يختلف كثيراً عن حكم مجموع يجود فهمه . ذلك لأن تجويد الفهم فى أناس يكتب عليهم عيش الذلة والخضوع مع ما يتبعهما من جوع وفقر ، أمر يكاد يكون من المستحيلات .

هذا من ناحية التربية . أما من ناحية نشر الفكرات المضادة لما تعتقد الحكومات أنه حق ، خطأ أم صواباً ، فطريقة جرت عليها الحكومات فى كل بقاع الارض . فان الحكومات تمنع نشر الافكار التى تزعج لها الاغلبية على رغم أنها مضرة وغير ملائمة لمقتضى الحال . ولكن هذه الاسباب هى عين الاسباب التى كان يتمسك بها دعاة محاكم التفتيش الرهيبة ، كما يقول « رسل » وقد رأت فى البروتستانتية ما نراه اليوم في البلشفية والشيوعية . ولا يقصد بهذا القول ضرورة للدفاع عن أى من هذه المذاهب المتطرفة الخرقاء .

ولقد كان لتذرع الحكومات بحظر الافكار التى لا توافق عليها الاغلبية أثر ظهر فى دور النيابة وفي كراسي التشريع السياسى والمدنى ، ولهذا رأت الاغلبيات فى بعض الأمم أنه من حقها أن تحظر نشر أفكار ما وأن تبيح نشر غيرها ، لان من حقها أن تمنع عنها ما يزعج بالها وأن تدفع عن الناس ما يؤذيهم طوعاً أو كرهاً . ولقد بدأت هذه الظاهرة فى البروز فى دارنا النيابية ، تتذرع بها نواب وشيوخ يحاولون أن يعتدوا اعتداء صريحاً على حرية الفكر التى كفلها القانون . لهذا نتساءل هل للسلطة التشريعية أن تتدخل فى حرية الفكر ؟

***

— ٣ —

بينا فيما سبق تحديد حرية الفكر ، وعرفنا سياسة الحكومات ازاء حرية الفكر . والآن نتناول الكلام فى السلطات التشريعية وهل لها الحق فى أن تتدخل في حرية الفكر ، وعلى الاخص في البرامج التى تدرس فى الجامعات ؟

حلت السلطات التشريعية الحديثة القائمة على النظام الديمقراطى محل الكنائس ورؤساء الاديان في العصور الوسطي . حلت هذه السلطات محل تلك ،

مع فارق واحد ، هو أن السلطات التشريعية الحديثة قد قامت فيما قامت عليه من المبادىء على أساس كفالة الحريات جميعها ، وأولها بالضرورة حرية الرأى . فى حين أن السلطات الكنيسية ورؤساء الاديان قد اعتقدوا فى العصور الاولى أنهم لايملكون فقط حرية الناس الدنيوية ، بل أيقنوا بأن لهم ضلعاً فى اقامة الدينونة وانهم الى حد ما «ديانون» يشاركون الله سلطته في توزيع العقاب والثواب على أهل الارض . لهذا كان من الضرورى لمن يعتقد بهذا الاعتقاد أن تقوم لديه فكرة أخرى هى أن « الفكر » أول ما يدان من أجله الانسان ، ولما كانت الكنائس ، باعتبار الآراء التى ذاعت في العصور الوسطى ، مسؤولة عن تحديد المعتقدات الانسانية بما يؤدى الى خلاص الناس فى الآخرة ، وفى ذلك تنحصر مهمتها العظمى ، استتبع جماع هذه السلسلة أن يكون من حق الكنيسة أن تسيطر على آراء الناس وأفكارهم ، بدعوى السعى فى خلاصهم الاخروى .

على أن دعوى الكنيسة قد درست وبادت مع ما باد من الفكرات والمعتقدات التى قامت عليها فى الماضى . فليس من المستطاع اذن أن تنتحل السلطات التشريعية فى العصر الحاضر نفس السلطة التى كانت للكنائس فى العصور الوسطى ، فتدعى أن لها حق السيطرة على أفكار الناس وتحديد معتقداتهم ، الا بان تدعى مع هذه الدعوى أن لها أن تستعمل نفس السلطة التى كانت للكنائس ، قائمة على نفس القواعد والمبادىء التى قامت عليها في الماضى . وهذا بالضرورة أبعد الاشياء عن مماشاة روح العصر التى نزعت بالناس الى التحرر من آثار الماضى بقدر ماتتطلب المقتضيات والحالات

احتكمت الكنائس فى تحديد برامج التعليم في الجماعات واعتدت على حرية التأليف وكونت مجمع الفهرست المعروف الذى كان يقيد فى فهرسته جميع الكتب التى يحظر على المؤمنين قراءتها . وكان من نتائج ذلك أن جمع الفهرست أسماء أشهر المؤلفات وأعظم المؤلفين الذين نفعوا الانسانية وخدموا العلم ، ولم يترك للمؤمنين من شىء يمكن أن ينتفع به علمياً أو أدبياً الا حثالة مما كانت تخرج عقول رجال الدين أوسعت الناس جهالة وغثاثة

فاذا ادعت السلطات التشريعية أن لها حق الاشراف على برامج التعليم التى تدرس في الجامعات ، خرجت بذلك عن وظيفتها الطبيعية ، وانقلبت أداة تحدد الفكر وتحتكم فى التفكير ، وتستبد بحركة العقول والافكار . ولا جرم أن هذا أشنع ماينال الحريات من مظالم المستبدين .

وليس لنا من شيء نقوله بعد هذا لنفر من نوابنا قاموا يحاولون أن يحددوا برنامج التعليم في جامعتنا الفتية ، فأخذوا نفس الوسيلة واتبعوا ذات الطريقة التى اتبعها رؤساء الدين فى العصور الوسطى ، وأخذوا يرمون الدكتور طه حسين وفئة معه بالكفر والالحاد . ولا مرية مطلقاً فى أن هذا السلاح وقد استعمل فى القرون الوسطى ، كان أقوى سلاح تدرع به الجهل وادرعت به عماية المتعصبين ضد كل من أراد أن يهدم من بنيان الوهم ركناً ، أو يقوض من التقاليد العتيقة قائماً .

قال الاستاذ ديكسون وايت فى خلال كلامه فى قضية غاليليو فى مؤلفه المعروف :

« غير أن نيران الحرب مازالت تزداد تسعراً واحتداماً ، بعد أن اتخذ فيها من الاسلحة بعض ضروب تستحق أن نخصها بالعناية . تلك أسلحة من الهين أن نبحثها وأن نحيط بها علماً . لانك تراها أينما وليت وجهك فى ميدان صورع فيه العلم . ولكنها في ميداننا هذا قد استخدمت بطريقة جعلتها ارهف حداً وأمضى نصلا ، منها فى كل ميدان آخر . وماهذ السلاح المحدود الغراب سوى كلمتين : أولاهما كلمة « ملحد » : والاخرى كلمة « كافر بالله » كلمتان طالماوجهتا لكل انسان حاول مرة فى تاريخ الدنيا أن ينفع ابن آدم من أية طريق وبأية وسيلة . أما الجدول الذى يحوى أسماء هؤلاء الكفرة الملحدين ، فتنطوى وقفاه على أسماء أعظم من سارت به قدم من رجال العلم والمنقطعين للدرس والمستكشفين والعاملين على هناء الانسانية . سدد ذلك السلاح القوى الى صدور أمثال اسحاق نيوتن وباسكال ولوك وملتون ، وحتى صدر فينيلون وهو وارد » ...

هذا السلاح الذى يدل فى أول مايدل عليه على الجهل المطبق والغباء ، والبعد

عن معرفه ماتقوم عليه الحريات الانسانية من أسس وقواعد ، قد حاول بعض نوابنا أن يتسلح به ضد الذين يحاولون أن يتحرروا من الآثار القديمة التى حملت هؤلاء النواب على أن يكونوا وراء العصر بقرون وأجيال ، فيسلوا ذلك السلاح من غمده الصدىء البالى ليضربوا به فى القرن العشرين ، فلا يصيبون الا الهواء ولا ينالون الا أقسى الضربات تسدد الى صدر الاستبداد والذين يريدون أن يحيوا مواته بعد أن دفنه العقل الانسانى وتركه فى ذمة التاريخ .

ولست أدرى كيف أن هيئة تشريعية يمكن أن تدعى بأنها الكفيلة لحرية الفكر القائمة على صيانتها وحفظها ، فى نفس الوقت الذى تحاول فيه أن تحتكم فى برامج التعليم فى الجامعة وهى الموئل الوحيد الذى لا يجب أن ينال حرية الفكر فيه شىء من استبداد المستبدين ، فى أى ثوب ظهروا ، وتحت أى عنوان أخفوا حقيقتهم .

يجب أن تستقل الجامعة عن كل ضرب من ضروب الاستبداد . يجب أن تستقل عن استبداد الافراد وعن استبداد الهيئات ، وأولى باليد التى تمتد مستبدة ببرامج الجامعة أن يقطعها سيف الحرية قبل ان تقذف بنا فى فلوات العصور الوسطى مرة أخرى ، فينكب عندنا الفكر بمثل ما نكب به فى اوروبا على يد الكنيسة الرومانية . بل أنا نكون أحط نزعة وأسوأ سيرة . فقد كان من القرون الوسطى للكنيسة بعض المبررات على أن تتبع ما اتبعت من سبيل . فى حين أننا لا نجد لهيئتنا التشريعية أى مبرر ، لا من المقتضيات ، ولا من روح العصر ، يبرر لها لفرد منها أن يفكر ساعة واحدة في أن يكون له أقل سلطة تحدد من حرية المفكرين في وضع برامج الجامعة ودور العلم

***

— ٤ —

كيف يجب أن نفهم حرية الفكر ؟

ينزعج كثير من أهل التقاليد لترديد « حرية الفكر » ، ويعتقدون أن فى ذيوع هذا الاسلوب العقلى قضاء على الكثير مما ورثوا من أوهام وخيالات .

ولهم كثير من الحق فى أن ينزعجوا وأن ينظروا في حرية الفكر نظرة من يعتقد أنها السلاح الوحيد لتحرير الانسانية من أوهامها الموروثة . على أن انزعاجهم هذا فيه من أثر الوهم أكثر مما فيه من أى شيء آخر . هم يتخيلون أن حرية الفكر تقضى على الدين وعلى ما يجرى مجرى الدين من المعتقدات التى تقوم على مدى الازمان وتتركز حول المعتقدات الثابتة . على أنهم فى نظرهم هذه مخطئون . فان حرية الفكر فى العالم الأوروبى تكاد تكون قبلة الشعوب ؛ فى حين أن روح الكثلكة لاتزال قائمة بكل ما ورثت عن القرون الاولى من قوة .

على أن هذا ليس من موضوعنا في شيء . فلنرجع الى الصورة التى يجب علينا أن نفهم بها حرية الفكر .

يترتب على تحرير الفكر أن يقلع الانسان عن الاعتقاد بأى شيء يخالف أحكام العقل . وهذه القاعدة لامفر منها . إذن وجب علينا أن نوازن بين تحرير عقولنا وأوهامنا . ولا جرم أننا لا نرضى بأن نلغى عقولنا في سبيل تسويد مشاعرنا وخيالاتنا .

على هذه القاعدة يجب أن نعتقد أن قوة النقد ، وهى أرقى ما في العقل لانسانى من صفات ، يجب أن تسيطر على كل شيء فى الوجود ، وحتى على الدين نفسه . وليس معنى هذا أننا اذا أتبعنا هذه الطريقة في بحث الدين ، وجب أن نحتقر ذلك الميراث الذى قنعت به الانسانية طوال تلك الاجيال وأخذ بيد الناس يقودهم من فلوات الزمان ، بل على الضد من ذلك نحمل له في صدورنا أجمل ما تستطيع الصدور أن تحمل من عبارات الاحترام وصيغ التبجيل . ولكن هذا لايحملنا مطلقا على ان نلغى عقولنا بجانب ما نحمل من احترام لذلك التراث . هذا ماتقتضيه حرية الفكر . تقتضى حرية الفكر أن يضحى فى سبيلها بكل شيء ؛ وعلى رأس هذه الاشياء ميراثنا عن الماضى البائد

***

— ٥ —

النتيجة

والمحصل من مجمل هذا أننا لانكون أبعد عن الاقساط في القول وأقرب الى الشطط منا اذا اعتقدنا بأن تراث الماضي يجب أن يكون نبراسنا الذي ينير لنا مفاوز الحاضر . فان الحاضر هو فى الواقع قائدنا وهادينا . وما الماضى الا صفحة بائدة نستقرىء فيها بعض ما يبرر لنا نظامات الحاضر التي نشعر بأننا في حاجة اليها . على هذا يجب أن نقتل فى عقولنا فكرة التأثر بالماضى ، وأن نقوى في عقلياتنا ما استطعنا فكرة عبادة الحاضر ، لنستطيع أن نشق لأنفسنا طريقا يأخذ بيدنا في ما أدلهم حولنا من ظلمات

اسماعيل مظهر

الليلة الاخيرة

أو خلاصة الروح

يا ابنة الفجر ابسمي رب صباح من ثناياك يلوح
فنرى فيه الحياه
يا ابنة الازهار والحسن أريج دائما منك يفوح
عطرينا بشذاه
يا ابنة الانغام قلبي دائما ليلا ينوح
أفتدرين أساه ؟
علميه نغمة أخرى تكن : بلسما تشفي الجروح
آه من جرحي آه ! !

* * *

يا ابنة الحب أعيريني جناحيك لأسمو في الفضاء
قبل ان تفنى حياتي
النجوم الزهر يطردن الدجى خلف ستار من ضياء
ورسول الفجر آتي
واسمعيني أنشد الشعر صلاة عند معبود السماء
قدست فيه صلاتي
يا ابنة الحب أجيبيني فهذا آخر ليل من لقائي
وستطوى صفحاتي . . .

* * *

يا ابنة الحسن اعصري لي من كروم الحسن خمراً
واسقينها بيديك
بين أنغام قيان تملأ الدنيا ضياء ثم سحراً
جسته من مقلتيك

فحياتى كنت أدريها رياضاً ، وأراها اليوم قفرا
أظهر المستور شكى
هل اذا مت ستبقى عندك الايام من ذلك ذكرى ؟
خبريني قبل هلكي

**

قد سئمت العيش فى الار ض فهيا نعتلى متن الرياح
للسماء
ربما صرنا ملاكين يحلينا جمال وكمال وسماح
وصفاء
نملأ الآفاق شدواً ، ليس ندبا أو نواحا أو صياح
أو عواء
مثل ما فى الارض مما عفته من : رواح ومجىء ، وصباح
ومساء

**

أو تعالى نندمج ربما صرنا كروح أو كسر
يتجلى فى الضمير
فاذا شئنا سكنا مهج العشاق أو أكمام زهر
أو على وجه الغدير
أو سكنا أرض روض ، أو سكنا قلب بحر
أو اذا شئنا نطير
ربما صرنا نجوما تنشر النـ ـور خيوطاً وهى تجرى
سابحات في الاثير

**

فتعالى نستريح من تعـ ـب الدنيا ومما هو فيها
من شكوك

ملئت شتى خرافات وأو هام فان قلت انبذوها نبذوك...
وتعالى نسلك الآن طر يقا لم يعبده بنوه بالسلوك
الصقتهم بالثرى المادة حـ تى رقصوا زهواً وتيهاً فى الحلوك (١)
هاهو الفجر اعتلى الأوج اعتلاء ملكياً بالضياء
فتعالى عانقينى يا ابنة الحب عناقاً أبدياً لا نهائى
تحت ظل الكرم حيناً قبل أن نعلو سوياً للسماء
آه! قد أحسست بالقلب - وانى شاعر - داء خفياً بالداء...
انه السر الذى لا يعلم ينزع الروح، ويمضى عن قريب
انه السيف الذى لا يثلم انه الموت، سيقضى بالمغيب...
يا ابنة الحب اذا مت ادفنينى فى فؤادك
واصعدى نحو السماء
لا تعودى أبدا
يا ابنة الحب انزعى مـ ن بعد أثواب حدادك
وتعزى بوفاء
غير محدود المدى

حسن كامل الصيرفى

(١) الحلوك: جمع حلك أى الظلام

مذكرات (أنا)

بقلم « ى »

— ٨ —

وماذا تريدنى ان أقول لك عن حياتى في الجامعه . فهناك شعرت لاول وهلة بصعوبة الاغتراب وكان من اللازم على ان أعضد نفسي . وكانت طريقة التدريس صعبة أو على الاقل شعرت انها كذلك . فقد عودتنى المدارس المصرية ان يشرح المدرس درسه أمامى ثم ينبغى على ان أراجع الدرس فى كتاب تصرفه المدرسة أو من الدفتر الذى كتبت فيه ما أملاه المدرس حرفا بحرف . على العكس من مدرستى الجديدة فقد كانت تعتمد على التلميذ كل الاعتماد .

فاولا كنا ندرس الكتاب لانفسنا ونسمع الدرس للمدرس وبعد ذلك يلقى هو علينا محاضرته ولا يكتفى بذلك بل يحتم علينا أخذ مذكرات تحوى ملخص ماقاله وزيادة على ماسبق كان يطلب منا الرجوع الى المطولات من المراجع وهى المعتمد في الامتحان النهائى . فكان التلميذ منا مضطرا الى أن يحفظ درسه أولا باول ثم يكتبه وبالطبع لايمكن كتابته كتابة يوافق عليها المدرس الا اذا أصغى للمحاضرة تمام الاصغاء وكان لابد لنا من مراجعة المطولات مع أخذ مذكرات منها

ضايقنى هذا النظام الجديد فكتبت لابى أقول إن تعليم المدرسة غير جيد كما هو الحال في مصر وطلبت منه الاذن فى الرجوع الى الوطن فلم يكن جوابه لى الا انك اذا خرجت من المدرسة يجب أن لا ترينى وجهك مرة أخرى . فوجف قلبى لهذا التهديد ، ولكنى احتلت مرة أخرى فبعثت الى شقيقى أقول له « اذا لم يخرجنى أبى من هذه المدرسة سألقى بنفسى فى البحر » وردا على هذا الوعيد كتب لى أبى يقول « ان فكرتك وجيهة ويمكنك إن تنفذها لانها أصلح شىء تعمله اذا قررت خروجك من المدرسة » وبالطبع جبنت عن تنفيذها :

ولكنى تعودت على النظام الجديد والفت المعيشة بين أبنية الجامعة وعملت مجدا مجتهدا حتى تيسر لى انهاء كل المواضيع المطلوبة منى في القسم التحضيرى باستثناء موضوعين اثنين حضرتهما في الاجازة الصيفية فى مصر . ولما جزت

الأمتحانين فى أول السنة المكتبية سمح له بالانضمام الى القسم العالى وقضيت عامين بعد ذلك ثابر فيها المرشد (وهو المدرس الذى وقع اختيارى عليه) ووافق هو على هذا الاختيار ، على ارشادى الى مايجب ان أفعله وفق استعدادى فرتب لى برنامجا للدرس أقتطعه من عدة مدارس ليوفق بين استعدادى و بين ما كنت أرمى اليه . وهنا بدت لى حياة الدرس بصورة جذابة تماما لان عقبات اللغات والكيمياء والطبيعة والرياضيات التى كنت أكرهها أزيلت من طريقى وترك لى الحبل على الغارب فاجتنيت ما مالت اليه نفسى من المواضيع الاجتماعية فكنت أعمل اثنين وثلاثين ساعة فى الاسبوع دون كلل ولا ملل . فلا البث ان أقف على مبادىء علم من العلوم حتى أمسك بتلاليب علم آخر .ومع كل ذلك فالتجربة علمتنى ان التصاق باحد المتحذلقين من تلاميذه كان كافيا لاخذ زبدة مايحويه الكتاب الذى قرأه قبل الدخول للتسميع وكنت أرهف أذنى جيداً لسماع المحاضرة وكانت يدى تتحرك بسرعة لاختزال المحاضرات فاذا ماخرجت كتبتها باختصار في كناشتي . واما المطولات فكنت أقف على مضمونها بغاية السهولة ، وذلك باتفاق مع شخصين على ان يقرأ الاول كتاب كذا و يلخصه لى وأنا بدورى أقرأ الكتاب الثانى والخصه له ثم اتفق مع شخص آخر اتفاقا عكسيا فاكلفه بقراءة الكتاب الثانى وتلخيصه لى متعهدا ان أعطيه تلخيص الكتاب الاول فاذا ما انتهى الشخصان من القراءة كنت أكتب تلخيص كل منهما في كراستي وانقل تلخيص هذا لذاك وبالعكس

فبهذه الطريقة الشيطانية كان لى متسع من الوقت للاشتراك فى جميع الانظمة الاجتماعية العلمية والرياضية في المدرسة.وكثيرا ما كان يعجب أساتذتي واخوانى كيف يمكننى ان أثابر على الدرس وأنا دائما في ساحة اللعب ولكنى كنت لا أفشى لهم سرى الرهيب

وحقيقة لم يكن ترتيبي بين التلاميذ متقدما . ولكنى أشعر الآن باننى وجهت التفاتى الى خير مايمكن اجتناؤه من نظام الجامعات فلبها هو التشكيلات الاجتماعية التى تحويها حيث يحيا الطالب فيها حياة اجتماعية أقرب لما يسمونه المثل الاعلا وكيف لايكون الطالب كذلك وهو يشترك في سن الدساتير وفى اثبات أو نفى النظريات المطروحة على بساط البحث وكذلك هو مضطر الى تنظيم وقته كما يفعل

عظماء الرجال . ويتمرن على ان يخفف من غلوائه في أوقات الضيق فرئيس الجمعية هو رئيس وزارة يبذل جهده لادارة دفتها حسب سياسة معينة وعليه ان يواجه حملات الحزب المعارض بصدر رحب . كذلك من واجباته ان يذلل الامور مع ذوى الشأن وان يستقبل وفود الاعضاء المعترضين وان يبسم للغاضبين . ومن واجباته مقابلة الزائرين . فعليه والحالةهذه مسؤلية لاتعدحقيرة بالنسبة لسنهومقدار اختباراته . واما أعضاء مجلس الادارة فهموزراء الدويلةولكل منهم عمل هو مسئول عن انجاحه وبما ان لكل جمعية مجلة شهرية فمسئولية رئيس التحرير كبيرة . وكذلك تجد أغلب الاعضاء مضطرين للتكاتف كي لاتظهر مجلتهم وهى لسان حالهم بشكل مزر . واما الاحتفالات العامة فتحتاج الى نظام دقيق واشراف شديد . أضف الى كل ماسبق العمل على حفظ سمعة الجمعية وكف يد الاعضاء الاشقياء عن عمل ما يشين سمعتها وكذلك الجهاد لدفع التهم التى تكال لها بحق أو بدون حق

أليست هذه الحياة شبيهة بالحياة التى نحياها في المنزل وفى النوادى وفى أمكنة العمل. وكم أودأن تقلل مدارسنا المصرية من أكداس العلوم العقيمة المتنافرة التى لا تصلح لشىء مابعد ان يجوز التلميذ فيها الامتحان وتتبع الجامعات فى ايجاد هذه التشكيلات الاجتماعية . وكانت توجد مدرسة ملحقة بالجامعة يديرها الطلبه غايتها تعليم الاميين مبادىء القراءة والكتابة وكان الانضمام اليها اختياريا . وكانت هناك أيضا جمعية لتسلية مرضى مستشفيات الجامعة وكان عمل أعضاء هذه الجمعية الاخيرة ينحصر فى زيارة هذه المستشفيات لقص القصص على المرضى المحتاجين للتسلية واسماعهم أغان . أو قطع موسيقية من الحاكى أو الاشتراك مع الاطفال في العاب مختلفة . وكانت تجرى مسابقات المقصود منها هو تفصيل أو تطريز ملابس لاولاد الملجأ فكان التلامذه ينقسمون الى فرق ليسابق كل تلميذ منهم فى عمل شىء أسرع من غيره ، أولا للذة وثانيا لربح كتاب لاتزيد قيمته على قروش خمسة وكان الناتج من رسوم الدخول يكفى لثمن المواد الاولية التى تستعمل ثيابا باضافتها الى تبرعات يجود بها الطلبة. هذه هى الانظمة التى رتعت فيها بضع سنين وبجانب هذه اللذة مارست أشياء مكروهة كاجبار الجامعة للطلبة على حضور

الصلاة مع الدروس الدينية وكم كانت تمقت نفسي ذلك التحكم ولكن لم يكن هناك بد من تحمله حتى يمكن البقاء في الجامعة وانى لا أزال أضحك ملء فمي من هؤلاء المبشرين فان طريقتهم ، لو يعلمون ، عقيمة للغاية . فهم يهاجمون الايمان معتقدين أنهم يحولون الشخص من اعتقاد لآخر دون أن يشعروا بأنهم ينسفون بذلك الايمان من قلبه نسفاً . وكيف يمكن لغير المؤمن أن يصبح مؤمنا مرة أخرى بعد أن يذهب الايمان من قلبه ؟ وهكذا كنت مؤمنا بكل ما لقنه لي والدي وبكل ماتشبثت به من التقاليد . كنت أتألم بادىء ذي بدء عند مشاهدة معاول التخريب تقوض ذلك البنيان الجميل والخيال الجذاب . ولكنني لم ألبث حتى ألفت الحال فلما جاء دورهم لتثبيت ماشاؤوا تثبيته في نفسي من المعتقدات أسرعت الى المعول الذي ألقوه أرضا وأخذت أعمل مجداً في تحطيم مايبنونه كما هدموا من قبل مابناه أسلافهم . أجل فقد جاء دوري لاستعمال العقل والمنطق لتقويض بناء الاعتقادات الجديدة وبالفعل قوضتها دون رحمة فساءت العلائق بيني وبين أولى الشأن خصوصاً واني أصبحت نبيا أبشر بوجوب تغليب العقل على الخيال

وصدقني أيها القارىء أنني شعرت بنفسي تائهة في صحراء بعد أن تحطم البيت الذي كنت أسكنه . وهل يمكنك تصور رجل تائه في مجاهل قفراء دون أن يكون له حتى ولا أمل كاذب هو البقية الباقية التي تحثه على السعي من أجل الوصول الى النهاية ؟ أجل أنه سراب خادع ولكنه يعد غاية على كل حال . فما قولك في رجل يقطع حبل أملك وهو البقية الباقية لك قائلا « انك سخيف لتعلقك بالوهم ، وهل تظن أن ماتبديه من الآراء معقول ؟ الا فكر جيدا تجد أن رأيك هذا ليس له أساس ، وذاك لا يمكن تطبيقه ، وفكرتك تلك ضعيفة ، ونظريتك الاخرى تحتاج الى اثبات » . وكم يكون عجبك شديدا عند ما يحاول أن يحيي فيك الأمل بآراء وأفكار ونظريات لاتقل سخافة عما أثبت لك سخافته من قبل .

ان مصدر حركة الالحاد في الشرق هم جماعة المبشرين . وأراهنك على أنك لن تجد واحدا في كل مائة من خريجي مدارس المبشرين يحوي قلبه مقدارا من الايمان البريء الذي يملأ صدر رجل الطريق العام الذي تقابله كل يوم في غدواتك

و روحاتك. باللعامة من سعداء لا يفكرون الا في قوت يومهم والى حين قصير.
وهناك أمر آخر شر من السابق، ذلك هو روح المداجاة التي يبثها أولئك القساوسة في نفوس النشء والتظاهر بالتقى والورع وهما المفتاحان اللذان يقربان صاحبهما الى أرباب الحل والعقد منهم فالمراءآة من الصفات المميزة لطلبة مدارس المبشرين يندفع نحوها الشبان والصبية ظناً منهم أنها تساعد على تحسين آراء المدرسين فيهم وهذا لسوء الحظ صحيح لدرجة محدودة فان بعض المدرسين يأخذون بيد المقصر من أولئك (القديسين) أما بقية المدرسين فيفهمونهم فهماً خاطئاً لا لسبب الا لان المدرس يزن حسن أخلاق الطالب وأدبه بمبلغ ما يتظاهر به من الورع والتقى الكاذبين.

ولسوء الحظ، أو حسنه، لم أعر هذا النوع من «الايتيكيت» التفاتاً بالمرة، فقابلتني ضروب من الاضطهاد لم يحتمل صدماتها رأسي الفتى فأصابتني السوداء وابتليت بمرض ضعف أعصاب الدماغ. وما على القارىء الا أن يتصورني بلا عمل في وسط كله يعمل. وجدت هذا بعد أن انهيت دراستي ولم أجد أمامي مجالا للرجوع الى الوطن وكنت كلما حاولت شق طريق أمامي لأشغل نفسي بالدرس سد هذا الباب فى وجهي ولم يصغ أحد منهم لاحتجاجي. وحتى كتب المكتبة العامة المفتوحة لكل قادم كانت تمنع عني. ليس كلها بالطبع، لأن كتب الدين كانت توهب لي دون حساب وكنت أحث على درسها لأقف منها على أصول الايمان وهكذا قضيت عامين في وسط كله يعمل دون أن أتمكن من العمل

وكان الشباب يدفعني الى العجلة وكان كل يوم يمر على يخيل لى كأنه عام يصرم من حياتي القصيرة وكانت الآمال تذوى وكانت عزة نفسي تحتقر لا لشيء الا لأني (هرطوقى) انفث سم الالحاد فى آذان الطلبة

وفي هذا الوقت العصيب المدلهم الذى قرر فيه الاطباء وجوب ارسالى الى مستشفى الامراض العقلية ضمني الحب بين ذراعيه فوجدت فيه شاغلا ملذاً.
وهكذا استقر ما تبقى لى من العقل فى مكانه

ملخصة بتصرف (••••)

الاصلاح الاجتماعى

نشطت دول الغرب للعمل على رفع مستوى حياة عمالها وزراعها حتى ترفة عنهم بعض الشيء فتزداد قوة انتاجهم الامر الذى ينتج احسن الاثر فى زيادة الثروة الاهلية ، مقياس القوة التى هى كل شيء للدولة

وقد أخذت نظرية « يتكون المجموع السعيد من الافراد السعداء » تنتشر فى تلك الاوساط فهب القوم للعمل على تحقيق منطوقها

حقيقة وجد نظام التعاون منذ امد بعيد ولكن يجب ان نفرق بين النظام القديم الذى نشأ لدرء خطر كان وقوعه محققا و بين النظام الجديد الذى يرمى الى مثل اعلا هو العمل لرفع مستوى طائفة من البشر عن مستوى العجماوات

وكان الامير يكيون أول من فكر فى العمل على أساس غير أساس التعاون المتبع منذ أمد غير قصير . وتدور الفكرة الجديدة حول وجوب استجلاب أنواع السرور ووسائل الثقافة والمدنية الى الارياف حتى لا يمل الشبان ذوو المطامع من الاقامة هناك فيتكدسون فى المدن حيث يؤثرون فى تخفيض الاجور ويتسببون في رفع رقم العاطلين الامر الذى يؤدى الى الفوضى والبؤس

اننا لو درسنا حالة فلاحنا ، وهو القسم العامل المغبون فى الامة نجد بوادر النزوح الى المدن قد ظهرت فيه . كذلك نجد ان عدد العاطلين فى القاهرة مثلا اخذ فى الازدياد وبالطبع نتج عن ذلك ازدياد الجرائم

واذا درسنا حالة الارياف نجد معظم سراتها ومتعلميها قد نزحوا عنها الى العواصم أو العاصمة الكبرى حيث يتيسر لهم اللهو وانى اسف لعدم امكانى القول لكي يتيسر الدرس لهم ، لاننا لم نعشق حتى الآن هذه اللذة الفكرية . وبخروج نخبة القرية منها لا يتبقى فيها الا البسطاء المزارعين الذين لا يعرفون غاية لحياتهم اذ يبدأ كل منهم عمله الممل مع طلوع الشمس ويرجع وقت غروبها كي يأخذ قسطا من الراحة في مكان لا يمنع عنه حر القيظ ولا زمهرير البرد ، فكيف ننتظر من هذا

المخلوق ان يجد ويجتهد وان يتفاءل وهو يشعر بثقل حمل الحياة ولايعرف طعماً للذة التي نعمل لاجلها

ان عمل الفلاح طول يوم في الحقل على مدار السنة لاينتج مقدرا يعادل المقدار الذى ينتجه لو عمل ست ساعات فقط كل يوم وتركت له فرصة لتثقيف ذاته وترهيفها بقية ساعات النهار حتى اذا ماجن الليل وجد له مأوى نظيفاً وطعاما مغذيا ووسطا عائليا يجلب السعادة ويرقى فيه غريزة العطف على اخيه الانسان

اذهب الى أية قرية من قرى القطر تجدها قد كسيت بكساء من الكآبة وشظف العيش متسخة الجوانب بشعة المنظر فاذا ماجن الليل لاتعثر الا على أشياء مشابهة للقبور الخفيرة يوصوص من شقوقها نور ضعيف . اما عن الروائح الكريهة التي تتصاعد من هنا وهناك فحدث عنها ولا حرج ففي وسط هذه المزبلة يعيش اغلب سكان القطر

يقول الاميريكيون ان معاهدهم العلمية ليست غير دور صناعة تتلقى الواحدة منها الشبان مهما كانت اخلاقهم وآراؤهم واديانهم واممهم فتصنعهم بضاعة امريكية تصلح للسوق . فالمعاهد العلمية هناك هى الدور التى تصنع فيها النماذج المطلوب صب الامة بأجمعها على منوالها وفى هذه المعاهد يربى الاساتذة تلامذتهم على منوال اجتماعى يصلون اليه بعد اجراء عدة تجارب و بعد درس وتمحيص طويلين نخريج الجامعات الاميريكية على الخصوص يخرج منها رجلا اجتماعيا نموذجيا قبل كل شيء يمرن منذ صغره على العمل بجد على مساعدة الغير للنحو على منحاه

ولطالب العلم فرصة قلما تسنح لغيره وهذه الفرصة هى الاجازة المدرسية ففى هذه الاجازة يرجع الى قريته وهناك يبذل جهدا كبيرا لبث روح الجامعة الاجتماعية بين الآهلين فينظم لهم النوادى الرياضية والادبية والزراعية وغير ذلك كذلك يبذل جهدا غير يسير فى نشر التعليم وتنظيم فصول الدراسة والقاء والمحاضرات وانشاء فرق الكشافه واحياء ليالى السرور واعطاء الارشادات الصحية . يفعل كل ذلك بارشاد مدرسيه الذين لايفتؤون يمدونه بمساعدتهم الفعلية والادبية هذا في الوقت الذي تمده فيها الجامعات بالنشرات المملوءة بالنصائح والتعليمات

ليتصور قارئ الآن وجود شخصين أو اكثر من قرية صغيرة يعملون متحدين لرفع مستوى الآهلين ويجدون فى ارشادهم الى أحسن الطرق الموصلة الى الحياة السعيدة. ليتصور قرية تعدادها الف نسمة مثلا تحوى نادياً لتربية الدجاج وآخر للفلاحة وثالث للعب الكوة ورابع للمطالعة وخامس لنشر التعليم الاولى وسادس للاسعافات الطبية وسابع للتمثيل. ليتصور ذلك وليقارنه بقرانا المضجرة الوسخة. وللجامعات كما للمدارس العالية أفرع لخدمة المجموع وهى تسيطر خلال الاجازة الصيفية بوجه خاص على كل من له صلة بالجامعة لترسل الاساتذة المدرسين للتفتيش على الطلبة المنبثين فى قرى البلاد ولالقاء المحاضرات في الفنون والمعارف المختصين بها بلغة سهلة فاذا ماجاء وقت الصيف يستقل كل أستاذ ومدرس صالونه وهو عبارة عن سيارة يسوقها بنفسه فيها مكان للنوم والراحة ينتقل به من جهة الى جهة مناقشاً شارحاً ثم يوزع نشرات على الفلاحين وكثيرا ما تصاحبه زوجه أو ابنته لخدمة مسكنه الصغير شطرا من الوقت ولمساعدته على العمل بين النساء شطرا آخر فيدربن البنات على التطريز والطهى والتمريض وتدبير المنزل

ولا ينسى موظفو الحكومة وأصحاب الاعمال الحرة انهم كانوا يوماً من الايام طلبة فى الجامعات وأن عليهم واجبات اجتماعية ولذلك يبذلون مافى وسعهم لتغذية المنشئات الاجتماعية فى دائرة أعمالهم يشجعونها ويرشدونها و يعملون فيها كأنهم من السكان متناسين وظائفهم الرسمية وهم فى الحقيقة مراسلون محليون للجامعات ومرشدون للطلبة حين ينتشرون في جميع الانحاء مدة العطلة الصيفية

وللقاضى واجب كما للمحامى وللطبيب وللمهندس هو القاء المحاضرات هنا وهناك لتنوير الناس كل في فرعه المختص به وكذلك الاشتراك في أقصى عدد ممكن من الاندية اشتراكا فعليا مادياً وأدبيا

وقد بدأت الجامعة الاميريكية في تطبيق هذا النظام هنا عن طريق « فرع الخدمة العامة » التى أنشأته حديثاً وهى تدرب طلبتها على العمل وتمدهم بما فى مقدورها من المال والمعلومات فاذا تنبهت الحكومة الى وجوب الاشتراك في هذه الحركة لتنتج عنها للبلاد خير عميم مع ملاحظة أن لدى الحكومة ما يؤيد

أن عشرة الآف طالب كلهم فى المعاهد العاليـة والفرق المتقدمة من مدارسها الثانوية يمكن تدريبهم وتنظيمهم لترويج الفكرة طيلة العطلة الصيفية التى تزيد عن ثلث السنة ومن رأيي أن من واجب الحكومة تنشيط حركة التنظيمات الاجتماعية في مدارسها وخصوصاً في الجامعة وأن تهتم بانشاء فروع « للاقتصاد الريفى » فى مدارس الزراعة والحقوق والتجارة وكلية الآداب بالاقل .

تصور كم يسر الفلاحون عندما يفد عليهم أبناؤهم لقضاء الاجازة الصيفية بينهم لتنفيذ برنامج تعليم أولى وتنظيم احتفالات للكشافة وللمسابقات الرياضية والقاء محاضرات وتمثيل روايات وتكوين نوادى للموسيقى وللغناء ولفلاحة البساتين هذه كلها يقوم بها الطلبة مدة أربعة شهور بالاقل كل سنة .

وكم يزداد سرور مفكرينا عندما يجدون أن الطلبة يكونون فى كل قرية مكتبة صغيرة يهبونها مايستغنون عنه من الكتب المدرسية وغير المدرسية بل ألا يسر أن نرى الطلبة بين المزارعين وسط الحقول يفلحون ويبذرون ويجنون الحاصلة وكلهم جاعل نفسه نموذجاً طيبا للفلاح البسيط .

ومما أسر له هو الحركة التى بدأتها جمعية الاتحاد النسوى لنشر التربية والمواساة والارشاد وكم أود لو قامت الاوانس طالبات المدارس بنصيبهن من العمل بين القرويات من ابداء النصائح الصحية وتدريب البنات على الحياكة وأعمال المنزل .

أليس من الخسارة أن نشجع جيشاً كبيراً يبلغ العشرة آلاف شاب على الكسل لمدة أربعة أشهر كل عام يقضونها جالسين على كراسى البارات لايتكلمون الا فى الموضوعات التى يأنف من التدنى الى بحثها كل رجل متعلم يعرف للشرف معنى

عمر عنايت

القضية المصرية

فى طورها الاخير

١ — العون الدولى

نستطيع أن نحدد القضية المصرية ونحصرها في جملة واحدة . فالواقع أن القضية المصرية عبارة عن سلسلة اعتداءات من جانب انجلترا ، تتبعها سلسلة تسليمات من جانب مصر . فى هذه الجملة ينحصر معنى القضية المصرية . غير أننا لانعنى بالتسليم من جانب مصر أن ذلك يعطى انجلترا فى مصر حقاً شرعياً ، ولا أن اعتداء انجلترا على مصر يكسب هذا الاعتداء صبغة شرعية . والحق أن اعتداء القوة فى كل العصور لم يكسب المعتدى حقاً مشروعاً — ولا أفقد الامة المعتدى عليها حقوقها الابدية ، بل هو حالة زائلة على الحالة الطبيعية التى تكونت فى مفهوم الشعوب وتحددت بأن لكل أمة حق الحياة والحرية .

ومن الطبيعى أن يصطبغ الاعتداء الواقع من جانب القوى على أمة ضعيفة بصبغة دولية ، مادام لهذا الاعتداء علاقة بالمصالح القائمة فى الدنيا لمجموع من دول الارض. لهذا اعتبرت القضية المصرية منذ أول اعتداء انجلترا على مصر ، قضية دولية ، عقدت من أجلها المؤتمرات ووقعت المعاهدات ؛ وصرح بشأنها ساسة انجلترا تصريحات عديدة، لم يقصد بها الا أن تطمئن الدول ذوات المصالح في الشرق على مصالحهن مع وقوع الاعتداء الفعلى على مصر .

وظل العون الدولى ذا أثر ما في تحديد القضية المصرية ، إلى أن زار الملك ادوارد السابع فرنسا وعقدت على أثر زيارته هذه معاهدة سنة ١٩٠٤ التى أطلقت يد فرنسا فى مراكش بمثل ما أطلقت يد انجلترا في مصر .

فقدت مصر بذلك العون الدولى . ولكنها لم تفقد قضيتها الصبغة الدولية . فان مجرد وقوع مصر على ذلك الطريق العالمى الذى يربط بين الشرق والغرب ، كاف لان يجعل قضيتها دولية الى أبد الآبدين . ما يؤثر على هذا الموقع من

معاهدة ولا اعتداء ولا تصريح سياسي ولا شيء مما يجرى هـذا المجرى . لان مار بطته الطبيعة لا تحله الماحكات الانسانية .

كانت فرنسا أول الدول التي ناوأت انجلترا في مصر . فلما أمنت على مرا كش وامنت على أن تكون حرة في اعتدائها على شمال أفريقية ، وغلت يدها عن مساعدة مصر دولياً فى حل قضيتها ، فقدت مصر بذلك العون الدولى

وكانت دول الوسط لا تتطلع الى هذه الاعتداءات الا كما يتطلع شخص الى بناء يقام من الورق لا يلبث أن ينهار اذا زلزلت الارض من تحته. وكانت ألمانيا الاصبع المحرك لهذه السياسة . فعمدت الى فكرة أن حربا عالمية تهزم فيها انجلترا وفرنسا كافية لان تبدل كل نظام الاستعمار الذى قام في القرن التاسع عشر وتنقله بكل تراثه من يد انجلترا وفرنسا الى يد ألمانيا . وهذه الفكرة أفقدت مصر عونا دوليا كان من الممكن أن تعتمد عليه . وكانت تركيا رجلا مريضا تطببه السياسة الالمانية ، فكانت تكيل له السم الزعاف فى جرعات معسولة .

بهذا فقدت مصر العون الدولى . على أن بعض الناس قد يذهب فى تفسير هذا الامر الى حد الاعتقاد بأن فقدان العون الدولى فقدان لدولية القضية المصرية بالذات . وهذا أبعد ما نشأ في السياسة المصرية من النظريات عن حقيقة الواقع . فان الفرق بين فقدان مصر العون الدولى و بين أن قضيتها دولية ، كبير . غير أن فئة من السياسيين روجوا لهذه النظرية ، لا لشيء الا ليجدوا لانفسهم مبرراً يدخلون به مع انجلترا فى سلسلة من المفاوضات العقيمة التى نعتقد بحق أنها ان تكن قد أفقدتنا بعض الحقوق من الوجهة النظرية البحتة ، فانها كانت أفعل من غيرها فى تغيير مجرى الفكرة الوطنية وصرفها في متجه جديد ، أضر أكثر مما نفع .

« * »

٢ — المؤتمرات الامبراطورية وعهد السلام

وكانت الحرب العظمى ، فتحطمت تركيا ، وهزمت ألمانيا ، وانحلت النمسا وأطلقت يد فرنسا وانجلترا في العالم تفعلان به كيف شا[redacted] استعماراً واستغلالا . وأخذت النظريات الجديدة تظهر في أفق السياسة الدولية . فعمدت انجلترا

الى الامبراطورية الاستعمارية تدمغها بطابع جديد ، فقالت بفكرة الدائرة المرنة التي بشر بها لورد ملنر وروجها في أنحاء الامبراطورية البريطانية ، ثم نشأت فكرة استشارة المستعمرات المستقلة في سياسة الامبراطورية . كل هذا لتقاوم انجلترا الفكرة الاصلية التي قامت عليها عصبة الامم . فكونت انجلترا بهذه السياسة عصبة أمبراطورية صغرى تواجه بها عصبة الامم الكبرى ، وقيدت نفسها ازاء عصبتها الصغرى ببعض قيود وهمية ، أخذت تحتج بها كما صادفت من الازمات مايعاند سياستها التقليدية التي جرت عليها طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وكان من الطبيعي أن تغل يد عصبة الامم عن مصر وعن الامم التي يشابه مركزها مركز مصر أزاء الاستعمار الاوروبي بمقتضي ماوضعت فرنسا وانجلترا لهذه العصبة من نظامات لم تصبح بها عصبة الامم أكثر من خبر من الاخبار ، أو وهم من الاوهام ، وذلك في السياسة العالمية العملية على الاقل .

وكان من الضروري أن تستشير انجلترا مستعمراتها المستقلة في أمر النظام الذي تسير عليه مصر ، وكان من الطبيعي أن يتقيد الانجليز ، ولو في الظاهر ، بما تؤدي اليه هذه الاستشارة من النتائج . فلما أرادت مصر أن ترفع صوتها أزاء اعتداء انجلترا على حريتها مرة أخرى في مؤتمر لوزان الاخير ، وكان لابد لهذا المؤتمر من أن يتناول أشياء حيوية تتعلق بمستقبل مصر وحقوقها ، جابهتها انجلترا في المؤتمر بأن مصر حلقة في سلسلة الامبراطورية وأن لانجلترا أن تتكلم عنها . وهذه المتناقضات في مجموعها تكون في نظر انجلترا وفي نظر الدول مايدعونه القضية المصرية . وكذلك سيكون شأننا اذا نحن أردنا أن نرفع صوتنا بالاحتجاج لدى الدول التي تتفاوض الآن في عقد عهد السلام العام . فان انجلترا سوف تجابهنا بما جابهتنا به في الماضي أمام مؤتمر لوزان ، ونخرج من هذا المؤتمر كما خرجنا من المؤتمر الاول .

هذه الاشياء في مجموعها لا تفقد قضية مصر صبغتها الدولية ، بل هي دليل على اننا فقدنا العون الدولي لاغير . والفرق بين الحالتين كبير كما ترى .

(*)

٣ — المفاوضة مع فقدان العون الدولى

لاجرم أن كل مفاوضة تقع بين أمة ضعيفة اعتدى على استقلالها وبين الامة التى وقع منها هذا الاعتداء ، يكون عقيما غير منتج ، وعلى الاخص اذا فقدت الامة المعتدى عليها كل عون دولى ، فى حين أن الامة الغاصبة ، رغم قوتها ، تحوز أكبر قسط عرفه التاريخ من القوة الدولية .

هذه النظرية على بساطتها احتاجت الى زمان طويل جداً ، اذا اعتبرنا السرعة التى سارت بها حوادث السياسة المصرية خلال السنوات العشرة الاخيرة ، لكي تثبت فى أذهان بعض السياسيين . غير أن الاغلبية الساحقة من المشتغلين بحل القضية المصرية والرجال المسؤولين فى الحكم ، لايزالون حتى اليوم فى شك من صحتها . ولا ندرى بطبيعة الحال ان كان هذا الشك أمر يلجأ اليه لتبرير خطة معينة ، أم أنه ناتج عن اقتناع سوف يغير شيئاً من خططنا السياسية . على أن الازمة الاخيرة التى قامت عقب رفض المعاهدة التى قدم بها ثروت باشا بعد مفاوضاته الطويلة ، قد أثبتت بمالاسبيل الى ادحاضه ، أن هذه النظرية البسيطة لا تزال تحتاج الى كثير من الجهد لكي تقبلها عقول السياسيين .

يقولون بأن مصر مادامت قد فقدت دولية قضيتها ، وما يقصدون في الواقع الا أنها فقدت العون الدولى ، فلا بد لها من أن تفاوض . يقولون هذا القول غير ناظرين الى كثير من الاعتبارات العامة . ومهما فى نظرنا أن فقدان العون الدولى أجدر به أن يكون سبباً لان نبتعد عن المفاوضة ، لا أن نقدم عليها .

اذا روعيت هذه الاعتبارات ، واذا كنا قد استطعنا أن ننتفع من تجاريبنا الماضية فى مفاوضاتنا العديدة ، وجب علينا أن لانفكر في مفاوضة جديدة ، بل تعين علينا أن نعمل من طريق آخر ، نستطيع به أن نستمد العون فيه من أنفسنا ، مادمنا قد فقدنا العون الدولى .

*

* *

٤ — المسيح والاسخريوطى

لما عقد مؤتمر فرساى فى فرنسا ليقرر معاهدة السلام بعد الحرب العظمى ، وتقدم الدكتور ويلسون بمشروعه الكبير الذى شمل فيما اشتمل عليه عهد عصبة الامم ونظرية التقرير المصير ، جاس ويلسون عن يمين مسيو كليمنصو ، نمر فرنسا ، وجلس عن شمال النمر مستر لويد جورج . وأخذ مستر ويلسون يدلى بفكرته الاساسية فى العصبة وفى تقرير مصير الشعوب ، وأخذ لويد جورج يحور فى الاسس التى أرادها مستر ويلسون حتى فاز وكليمنصو بتقرير مبدإ الانتدابات ، كما فاز بتصريح ويلسون المعروف عن مصر . هنا قال كليمنصو كلمته المشهورة :

« خيل الى أنى أجلس فى مؤتمر الصلح والمسيح عن يمينى ، ويهوذا الاسخريوطى عن شمالى » .

ولا جرم أن يهوذا الاسخريوطى الذى أبطل سعى المسيح في مؤتمر فرساى ، هو نفسه الذى تقدم على مفاوضته الآن . فاذا نسينا ذلك نكون قد نسينا المبدأ الاساسي الذى يجب أن يقوم عليه عملنا فى سبيل تحرير بلادنا .

......

٥ — الامبراطورية البريطانية وتصريح ٢٨ فبراير

نريد أن نقدم للكلام فى علاقة الامبراطورية الانجليزية باعتبارها نظاما سياسياً بتصريح ٢٨ فبراير المعروف ، بمقدمة وجيزة .

فى العصور الاولى وفى حدود العصور الوسطى ، اضطر الناس بمقتضى الاعتبارات التى قامت فى أفق الاجتماع البشرى الى استخدام العبيد ، واستمر نظام الرق كقاعدة من القواعد التى قام عليها نظام الجمعية . ومضى هذا النظام قائماً حتى بدأ الاسياد المستعبدون يشعرون بأن نظام الرق أقل فائدة لهم ، من الوجهة المادية بالضرورة ، من نظام التحرير . لهذا بدأت فكرة تحرير العبيد تتكون فى الرءوس ، لا باعتبار أنها فكرة مثالية نزع اليها الانسان شفقة ورحمة باخوانه فى الانسانية ، ولا باعتبارها مبدأ سامياً جديراً بأن يعتنقه الانسان بعد أن تهذب وتمدين ، بل باعتبار أنها النظام الوحيد الذى يجب أن يحل محل الرق ،

ليعود بأكبر فائدة محققة النفع على المستبدين وأصحاب القوة . اذن لم يكن تحرير العبيد تحريراً بالفعل ؛ بل تحريراً بالاعتبار . اعتبر الرقيق حراً ، فقيل بأنه حر ولكن بقيود اقتصادية واجتماعية جعلته في حالة هي أشبه الحالات بالرق والاستعباد وان نصت القوانين والمعاهدات على أنه حر .

كذلك كان حال انجلترا معنا في تصريح ٢٨ فبراير . فلقد صارحنا غرانفيل بأننا أرقاء مستعبدين وأن علينا أن نطيع بلا مناقشة . وصارحنا ادوارد غراى بأن الاحتلال باق الى الابد . ورمينا بالحماية في أبان الحرب . فلما انقشع الغبار عن أن هذا النظام لايعود على انجلترا بأى نفع مادى اضطرت مجبرة على أن تغيره بنظام آخر قائلة إن الحماية نظام غيرمرغوب فيه . والحقيقة أنه غيرمرغوب فيه من جانبها كما هو غير مرغوب فيه من جانبنا . لهذا أعلن استقلال مصر مشروطاً على تحفظات فيها كل ماتقتضيه مصالح الامبراطورية الانجليزية من الاحتياطات الضرورية وغير الضرورية .

هذا هو مركز الامبراطورية الانجليزية أزاء مصر فى تصريح ٢٨ فبراير . غير أن هذا التصريح لم يستغل كل الاستغلال من جانب انجلترا . انما هى تريد استغلاله بأن تعقد معنا معاهدة دفاعية هجومية ؛ وأن يصبح مركزها فى مصر شرعياً بعد أن يكون اغتصابا . هنا يتحرر العبد نظريا واعتباراً . ولكنه يبقى عبداً نفعه أكبر من ضرره .

٦ — حملة مرشان : الجنوب أم الشمال ؟

فى ذلك العهد الذى لم تكن مصر قد فقدت فيه بعد العون الدولى ، وكانت فرنسا أكبر عضد لمصر في مقاومة النفوذ الانجليزى، قام الجنرال مرشان الفرنسوى بحملة بلغت فاشودة و رفعت هنالك الراية الفرنسوية . وكانت هذه الخطة لدى الواقع خطة يقصد بها ترويج سياسة فرنسا الاستعمارية . وأقل مافيها أنها انذار من جانب فرنسا لانجلترا ؛ محصله أن التنازع على الاستعمار فى قلب المستعمرات أمر قد يعود بالفشل على الدول المستعمرة ؛ كما أنه من الجائز أن يستغل من جانب الامم المستعمرة أرضها استغلالها يؤدى الى استقلالها استقلالا فعلياً .

كان من نتاج ذلك أن عقدت معاهدة ١٩٠٤ و بدأت انجلترا تفكر فى أن مصر كما انه من الجائز أن تغزى من الشمال فكذلك من الجائز أن تغزى من الجنوب . وكان بجوارها فى السودان فرنسا من الغرب والمانيا فى الجنوب الشرقى . وان انجلترا لتعلم ماهى المانيا وما هى المخاطر التى تتعرض لها انجلترا فى مصر أن استطاع جيش مدرب على النظام الحديث أن يثبت أقدامه على شاطىء النيل فى الجنوب .

لهذا عملت انجلترا على أن تنفرد بالسودان فضربت بمعاهدة ١٨٩٩ عرض الافق الاوسع واستقلت بالسودان دون مصر . وكان هذا الاعتداء الجديد نتيجة لحوادث ماضية ، ولتفكير طويل فى أيهما أنسب للدفاع عن مصر الشمال أم الجنوب؟ كلاهما مناسب، وكلاهما ضرورى . فالسودان من الجنوب والاسطول في الشمال . وأحيط بمصر ، فاصبحت كالمعصم يحيط به السوار

***

٧ ـ النتيجة : موقفنا الآن

الامر بسيط جدا ، والموقف على دقته بين جلى . أمة ضعيفة تقع أرضها فى طريق أكبر أمبراطورية تعضدها عصبة الامم وكل دول أوروبا ، لا يمكن أن تنال بالمفاوضة استقلالا . بل كل مايمكن هو الوصول الى تعديل فى الموقف السياسى يقلل من ضغط الغاصب زمانا محدودا . حتى اذا تغيرت الاحوال واحتاج الامر مع تغييرها الى تعديل جديد ، رجع الضغط السياسى بنسبة ماتقتضى الحال ، ليفوز الاقوى بالتعديل الذى يرغب فيه ، ويتمشى مع مصالحه .

بوليطيقوس

نظرية الغدد

وتأثيرها علميا فى تجديد الشباب

حديث مع الدكتور فرونوف (١)

النظرية قديمة ـ الغدد والحياة ـ ماذا يعنى علميا بالشيخوخة ـ تجديد الشباب ـ لاخوف من الغرائز الحيوانية

***

١ ـ النظرية قديمة

يعتقد الناس أن في مقررات الدكتور فرونوف وتجاربه وعملياته العديدة شيئاً خارجاً عن منطوق العلم الحديث. بل شيئاً فيه ريح الانقلاب والثورة على نظريات مقررة ومبادىء مسلم بها، وانها فى مجموعها بعيدة عما يشتغل به الطبيب المعالج باعتباره رجلا عملياً بعيدا عن الاحتكاك بالبحث العلمى الصرف. غير أن دكتور فرونوف قد أعلن في صراحة بان النظريات التى بنى عليها طريقته ليس فيها شىء يستشم منه ريح الثورة والخروج على ما كان مقرراً من النظريات، وقليل منها ماهو جديد لم يكن معروفا من قبل. بل قال بان العمليات التى يجريها ليست الا تطبيقاً لمبادىء كانت قد تقررت، ونظريات اعتقد كثير من الناس بصحتها، وذاعت حقائقها بين الباحثين.

ان العلمية الجراحية التى تدعى «عملية الغدة القردية» Monkey-gland operation كما قال دكتور فورنوف، هى صورة جديدة تطور اليها ما كان معروفا من قبل بعملية «الاوبوتيرابى» Opotherapy ـ أما تأثير الغدد فى الجهاز العضوى، فقد عرف منذ أزمان طويلة. قال دكتور فورنوف.

« يوجد فى الجسم الحى، ماعدا الاعضاء التى تضبط سير النظام العقلى والدورى والتنفسى وكثير من الخصائص الاخرى، أعضاء تؤثر فى هذه الانظمة

---

(١) حادث احد مكاتبى الصحف الانجليزية الراقية الدكتور فرونوف فى تطبيقه نظرية الغدد تطبيقا عمليا فادلى اليه برأيه فى صراحة وقد آثرنا أن ننقل لقراء المصور هذا الحديث ليقفوا على شىء من أغرب مااهتدى اليه العلم الحديث فى نظريات الحياة.

بواسطة مواد عضوية تغذى بها جهاز الدورة الدموية . وبهذه الطريقة نجد أن تلك الاعضاء يمكنها أن تؤثر فى أجزاء من الجسم الحى يكون موقعها العضوى بعيداً عن مركز الاعضاء المؤثرة ذاتها ، أو تؤثر في مجموع الجسم الحى » .

وهذه الاعضاء ليست بشىء سوى الغدد . ولقد عرف منذ زمان طويل بأن هذه الغددمن طريق افرازاتها الداخلية ، تؤثر فى تطور الخلايا الحية ، ذلك التطور العضوى الذى تعود اليه صحة الجسم فى مجموعه .

* * *

٢ — الغدد والحياة

منذ سنة ١٨٨٩ استكشف العلامة « برون سكار » الفرنسى ، وكان يدعى خالق فن « الاو بو تيرابى » أن هذه الافرازات في الجسم الانسانى هى بذاتها فى الاجسام الحيوانية ، وبذلك وصل الى فكرة أن يعالج الامراض التى يكون منشؤها هزال أو ضعف يصيب غدة من هذه الغدد أو عدداً منها ، بأن يعطى المريض خلاصة مستخرجة من نفس الغدة فى حيوان سليم من المرض. وعلى هذه القاعدة استعمل « البابسين » سنوات عديدة دواء لمرض الدسيبسيا Dypsepsia أى التخمة أو سوء الهضم — ليعوض به عن نقص العصير المعدى فى معدة المصاب بالمرض ، كما استعمل نخاع العظم علاجا لفقر الدم — الانيميا — Anaemia

أما أظهر النتائج التى وصل اليها علم الطب فقد حدثت فى المرض المسمى ميكسوديما — Myxoedema الذى يحدث من هزال يصيب الغدة الدرقية — Thyroid gland

قال دكتور فورنوف :

« ان مثل الغدة الدرقية كمثل سدادة مضيئة للمخ » .

والاطفال الذين يولدون بغير غدة درقية يكونون بلهاء أو مصابين بالعتة والذين يصابون بمرض « الميكسوديما » أحسن منهم حالا ، حتى أنك لتجد أن وجوههم غير ذات ألفة ، ولا تقع على تعبير ما في تقاطيعهم، وكلامهم بطىء .

وأن أيديهم مشوهة ، وقد تكون شبيهة بالمنجل ، وأن دورتهم الدموية بطيئة. ولقد ظهر عملياً أن خلاصة الغدة الدرقية علاج واف لمثل هذه الحالات . غير أن دكتور فورنوف يعتقد بأن الاطباء - « إذا أرادوا أن يحاكوا عمل الطبيعة وينهجوا منهجها ، وجب عليهم أن يكرروا اعطاء هذه المادة في جرعات صغيرة متوالية مدى حياة المريض » . وهو فوق ذلك يوقن بأن الاقلاع عن هذه الطريقة الطبيعية كان سبباً في أن استخدام طريقة « برون بيكار » لم تنتج كل الآمال التي عقدها عليها الباحثون . أما ماضمن النجاح لطريقة دكتور فورنوف فهو ادخال طريقة « التطعيم » في العلاج ، التي استبدلت بها طريقة استعمال الخلاصات الغدية في صورة أقراص تزدرد ، بأخذ غدة حية في حالة جيدة « وتطعيم » الجسم بها لتقوم مقام الغدة الدرقية

* * *

٣ـ ماذا يعني بالشيخوخة علمياً

الى هذا الحد ظل عمل دكتور فورنوف عبارة عن تطبيق مبدإ بيولوجي عرف خطره من قبل غير أنه لم يصل الى هذا الحد ، الا ليبدأ بوضع نظرية في سبب الضعف الشيخوخي Senility من الظاهر حتى الآن أنها لم تفز بعد بقبول عام . ويرجح فورنوف أن احدى الغدد قد وضعت على أن تفرز مادة تنبه ما في خلايا الجسم حيويتها الطبيعية. فاذا صح هذا ، تصبح الشيخوخة ، وبالاحرى الضعف الشيخوخي ، راجعاً الى أن هذه الغدة قد تعطلت عن القيام بخصائصها وهذا يدل دلالة واضحة على أن قدرة الغدة على القيام بوظيفتها مقدور في الحقيقة الى قدر خاص من العمر . فاذا انحصر في هذا تأثير الغدة الدرقية وضح لنا أن كل من يتقدمون في العمر لا بد من أن يصيبهم العته على مر الزمان ، اذا ما تعطل تأثير الغدة الدرقية ، ولا بد أيضا من أن يحدث الموت سريعاً بعد ذلك بسبب الرجفات السكرازية التي يتوالى حدوثها في مثل هذه الحالات . هذا في الغدة الدرقية . اما الغدة النخامية ، فاذا أصابها الهزال ولم تصبح قادرة على القيام بوظيفتها عند بلوغ حد معين من العمر ، فان الموت يحدث سريعاً ، بسبب

ما يحدث من تأجيل دورات التنفس وانحطاط الاحترار ـ Temprature وغير ذلك من الاسباب .

قال دكتور فورونوف :

«فى حالات التقدم في العمر ، تبقى هذه الغدد قائمة بوظيفتها ، ولكن بضعف وهبوط عام بغير شك، ولا تتعطل الاعضاء عن تزويد الجسم بتلك الافرازات التى هي ضرورية للحياة . ولا يعدو هذه القاعدة سوى غدة واحدة من الغدد الكثيرة التى يحتوى عليها الجسم . تلك هى الغدة التناسلية . فهل لنا أن نعتقد بان هذه الحالة نقطة ابتداء تتابع البحث من طريقها ؟ »

***

ـ ٤ ـ تجديد الشباب

ثم يصح أن نتخذ حالة الغدد التناسلية مبدأ نتابع منه البحث ، ولا جرم أن على هذا المبدأ تقوم طريقة الدكتور فورونوف العملية . فان عملياته الجراحية التى جدد بها الشباب انما تنحصر فى أن « يطعم » جسم المريض بغدة تناسلية تؤخذ من فرد صحيح البنية . وهو يستمسك بصلابة بفكرة أن هذه العملية لا تعيد الى الرجل النشاط التناسلى فى كل الحالات ، أما ما يؤكد دكتور فورونوف انه يترتب حتماً على هذه العملية فتغيير طبيعى فزيولوجى يحسن من حالة المريض تحسيناً يذكر . وقد اتضح من طريق تجربته هذه ان حيوية الخلايا الجسمية والمخية تتوقف بالاكثر على الافرازات الداخلية التى تزود بها هذه الغدد الجسم الحى .

وهو على تمام الاقتناع بان مرضاه بعد القيام بهذه العملية يصبحون أكثر مقدرة ونشاطاً عقليا وجسمانياً . وبالاحرى يعتقد بان شبابهم قد « تجدد » . ويقول فوق هذا بان هذه العملية يجب أن تعمل بعد أن يجوز الانسان « متوسط عمره » . على أن اصطلاح « متوسط العمر » يختلف باختلاف الاشخاص . فمنهم من يبلغ متوسط العمر وهو في شرخ شبابه ، ومنهم من يبلغه وهو فى الاربعين أو الخامسة والاربعين .

وفضلا عن هذا فان عملية التطعيم بالغدد قد عملت أكثر من مرة فى جسم

واحد ، كما يقول فورونوف . أما اجراؤها لثالث مرة فلم تجرب الا فى كبش كبير السن .

وذكر دكتور فورونوف أن نسبة نجاح عمليته فى ١٣٠٠ مريض كبيرة تدعو الى التفاؤل الكثير . ولم تمتد علاقته بكثير من مرضاه مدة طويلة بعد العملية . وأن الاكثرية منهم لم يكتبوا له ، بل ولم يعودوا اليه ليستشيروه فى شيء مما يدل على ان حالهم قد تحسنت وانهم لم يعودوا فى حاجة اليه .

***

٥ ـ لا خوف من الغرائز الحيوانية

من البين أن هذه النظرية ، مادامت قد فهمت فهماً جيداً ، فليس هنالك من خوف في أن يترتب على التطعيم بغدة حيوانية أن تنتقل الى الجسم المطعم غرائز الحيوان الذى تؤخذ منه مادة التطعيم . انما ينتقل الى الجسم المطعوم خصائص العضو الذى يطعم به لا غير ، وذلك ليساعد الجسم على القيام بوظائفه الطبيعية ، ولا علاقة لذلك بالغرائز مطلقاً . فاذا طعمنا حصاناً أصابه هزال الشيخوخة بغدة درقية تؤخذ من انسان ، فلا يترتب على هذا أن يصبح للحصان القدرة على التفكير كما يفعل الانسان ، بل كل مايترتب على هذه العملية هو ان تساعد دقائق المخ فى الحصان على أن تقوم بوظيفتها حسب كفايتها الطبيعية لا غير .

بهذا تعود الحيوية الى الخلايا ، فيصبح الحصان أكثر صحة وأقوى بنية . ولكن هذا لا ينقله عن افقه الحيوانى قيد أنملة .

العاصفة

حدثني صديق لي عن قصة غرامه المؤثرة . قال :

في ١٥ أيلول ١٩٢١ نزحت عن بيروت ميمماً شطر حيفا . وكان لي فيها صديق عرفني الى كثير من العائلات . وكان هو يتردد على عائلة مؤلفة من زوج وزوجة .

فذات يوم زرنا هذه العائلة . وجعلنا نتردد عليها بالزيارة حيناً بعد حين . حتى تمكنت أواصر الصداقة بيني وبينها . فغدوت أزورها منفرداً .

وكانت أول زيارة . أصل شقائي وشقاء الزوجة الشابة الجميلة ، اذ حين وقع نظر كل منا على الآخر . شعر بتيار كهربائي يسري في عروقه ...

علقت بتلك السيدة . وكانت هي لا تقل عني غراماً . حتى غدت تنظر الي بكآبة ورفق . كأن بقلبها سر ، تود إفشاؤه إلي .

مضى على ماينيف على عشرة أيام وأنا أشعر أن حبها ينمو في قلبي ، فذهبت اليها يوماً . على غير موعد الزيارة ، وأنا أشعر بدافع غريب ، يدفعني للذهاب . فتلقتني بابتسامة كئيبة عذبة . وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، فرأيتها تائهة لا تعلم مايحيط بها ، ثم حدقت في بحزن وحنو وامتلأت عيناها بالدموع ...

فشعرت بأن النار تتأجج في قلبي ، وتنهدت هامساً :

— مابك ياسيدتي ؟

— ؟ ...

— بم تشعرين ؟ ...

— بربك قولي ! لقد جرحت قلبي دموعك ! ...

— ؟...

— حنانيك ! مم تشكين ؟ .

فرمقتني بنظرة ذابلة كئيبة . وهمست :

— جرحت قلبك دموعي ؟ أحقاً ! لم ذلك ؟ ...

— رحماك ياالله ! ... لاتسليني ياسيدتي ...

ـ لاتقل سيدتي ، ياصديقي العزيز

ـ ماذا أقول اذن ؟

- قل . . . . رباه ! . . رفقاً ! . .
أشفق على . . . .

وغطت وجهها بيديها ، وجعلت تبكي خيفة ، فهتفت :

- سيدتى ! دعينى أسألك ما بك. ولم تبكين ؟ ! . . .

فنظرت الى تعنفنى لقولى لها ثانية: « سيدتى » . ففطنت لذلك :

- قولى ما بك يا إيفون ؟

- ما بى ! . . . لا أعلم . . . . يا عزيزى جورج . . . .

ورمتنى بنظرة قاسية تؤنبنى لتجاهلى .

- لا تكلمين ! وأنا لا أعلم . فمن يعلم إذن ؟ ! . . .

- كلانا . . .

- كلانا ! . . .

- ربما . . .

واغرورقت عيناها بالدموع . حتى أبكتنى . ثم قالت متنهدة :

- لماذا يريد الله عذابى ؟

- لانه يريد عذابى

- هل تتألم لألمى ؟

- كفى رحماك !

واقتربت منها أود ضمها لصدرى فرمتنى بنظرة توسل :

- اذا كنت تحبنى حقاً . أرجوك ألا تدن منى . . .

- رحماك يالله ! ولماذا ياعزيزتى ؟!

- آه ! إنى شقية ياحبيبى . .

وتلك أول مرة تدعونى بها « حبيبى » فتيقنت أنها تحبنى حباً صادقاً .

- ولم ذلك ياحبيبتى ؟!

- أنت تعلم أنى متزوجة ، وأظنك فهمت . .

- أنا أعلم ، وماعلاقة ذلك بحبنا؟ أما علمت أن لاشىء يحول دون الحب . .

- أجل . الا الواجبات الزوجية ياصديقى ، فأنت ترى أنى بائسة بحبك، فياليتنى لم أعرفك ،لقد أدخلت الحزن على قلبى ، والالم الى نفسي ، والشقاء الى بيتى ، إذ أن واجباتى الزوجية ، تصدنى عن حبك ، لأنى أسمع صوتاً فى داخلى ينادينى : « وزوجك » ! ولكنى أسمع همساً من أعماقى يهتف: « وقلبك » ! آه ! لقد أصبحت بين عاصفتين عظيمتين ، وليس لى طاقة على احتمالها أو صدها ! فارحمنى ! .

واستغرقت باكية فحزنت لها ،

وودعتها ، عساى أن أخفف من وطأة ألمها ، واحتراما لعواطفها ، وفضيلتها .

وبعد ثلاثة أيام زرتها ، وكان المشهد مؤثراً ، إذ كانت تود أن ترتمى على عنقى ، ولكنها وجدت شيئاً يصدها فاكتفت بمصافحتى ، ذاهلة ، ضاغطة على يدى ، بكل قواها .

ـ عساك كنت سعيدة ، وهادئة كل هذه المدة ، ياايفون ؟

ـ كنت أشقى خلق الله ، اذوقعت في عراك نفسى عظيم صدمنى صدمة قوية ، وقعت على الاثر منهوكة القوى .

ـ لاتجعلى الالم يتسرب الى قلبك ولا تستسلمى الى اليأس .

ـ أحبك ! ولكنى لاأستطيع أن استرسل فى هذا الحب ..

ـ وما يمنعك؟

ـ واجباتى الزوجية

ـ هل تسمحين لى بقبلة ؟

ـ رحماك ! .. لا !

ـ عجباً ! ..

ـ أحبك ! ولكن لاتقرب الى ؛ لانى متزوجة ..

ـ فما هذا الحب !

ـ هذا هو الحب !

ـ أنا لاأستطيع أن أتصور أن حبيبتى تمنعنى عن تقبيلها ! ..

ـ يجب أن تتصور . لاسيما متى كانت هذه الحبيبة متزوجة ..

ـ ماهذه الفلسفة ؟!

ـ انها ليست فلسفة بل فضيلة ..

ـ ماهذه السفاسف !

ـ بل قل انها حقائق .

ثم ارتمت على مقعد منتحبة ، فاحترمت دموعها ، وعفافها ، ورجعت فوراً على أعقابى

***

ولبثت أزورها ، ونحن على هذه الحال ، حتى عيل صبرنا ؛ فاقتربت منها يوماً أريد تقبيلها . فتراجعت الى الوراء .

ـ ارجع ! . واياك أن تقرب !

فلم أحفل بها ؛ وعانقتها لاضمها الى صدرى ، فصاحت :

ـ ان فعلت اصرخ .

فرجعت حزيناً أبكي ، فبكت لبكائى

وكنت كلما زرتها ، يجلس كل منا على مقعد ، بعيداً عن رفيقه قليلا ولا نتكلم الا غراراً ؛ وكانت تصرف معظم

الوقت بالنظر إلى وهي تبكي ..

وكنا يوما على الشرفة، في منتصف الليل، وكان القمر يرى بأشعته الفضية على وجهها، فيزيده جمالا، فقلت لها:

ـ وبعد ذلك

ـ هذا هو الحب متى كانت الحبيبة متزوجة

ـ هلا تزالين تتكلمين في فلسفة الحب ؟

ـ هذه حقيقة راهنة، ياصديقي، ولم لا تعترف بها ؟

ـ يالك من فاضلة، مخلصة، ياحبيبتي، ترعى عهودها الزوجية، وترعى عهود الحب في وقت واحد

ـ ان الله يعذبني أكثر من طاقتي وأظن هذا كثير علي ..

وأدارت وجهها عني، ثم حدقت بعينيها فوجدتهما مغرورقتين بالدموع

ـ هلا تزالين تبكين! ارحمي نفسك وارحميني، ودعيني أقبلك الآن وأضمد جرح قلبك الدامي

ـ حنانيك

ـ ايفون !

ـ جورج !

ـ ماهذا العناد ؟

وتقدمت أليها لاضمها الى قلبي، فهتفت باكية.

ـ اذا قبلتني رميت بنفسي من الشرفة

فتراجعت معجبا بعفافها وشدة تمسكها بواجباتها الزوجية، وفرط حبها لي، فتركتها راثيا لحالي وحالها.

...

وفي اليوم التالي وردت علي برقية مستعجلة، تضطرني للحضور الى بيروت فلم يسمح لي الوقت لوداعها، فرجعت الى بيروت، وفي القلب لوعات ..

ثم جعلت انتهز الفرص، لأعود اليها، فسافرت بعد ثلاثة أشهر الى حيفا وفي المساء، ذهبت لمنزلها، وبي شوق وحب يستحيل تصويرهما، فقابلني زوجها بابتسامة كئيبة، فسألته عنها، وقلبي يخفق بشدة، فأجاب مطرقا، وقد تناثرت دمعة حارة على خده:

ـ مسكينة ايفون ... لقد ماتت ....

بيروت

منير الحسامي

الثورة

الثورة لفظة مخيفة تلقى الرعب في قلب من يسمعها ، ويحسب الراغب فى نطقها حسابا كبيراً قبل ان تلفظها شفتاه . يقولون ان الثورة هى الخراب ، هي الهدم ، هى الفوضى ، وهذا مالا يمكن نكرانه . ولكن يجب ان نعلم بانها لاتهدم ولا تخرب الا كل بالعتيق مضر من النظريات التى ثبت عدم صلاحيتها للبقاء . واما الفوضى فوقتيه .وليست أ كثرمن رد فعل عنيف ومظهر للانتقال من حال سيئة الى حال أحسن أو أقل سوءا .

وانك اذا شاهدت قصة تمثل على اللوحة البيضاء تجد الحوادث تمر أمامك متتابعة؛فيها الطيب والردىء والخير والشر والجمال والبشاعة . أمور تحتاج الى عدة سنين أو أجيال لتمثل فيها بهوادة على مسرح الحياة. فهذه المناظر لاتمر أمام عينيك متسكئة متباطئة حتى ترى الجريمة الواحدة ترتكب فتأنف منها. ثم ترى الثواب المفرد فتسر له ؛ بل تجد حوادث الجيل تمر سراعا بما فيها من جرائم، فيجتذب نظرك ، لسوء الحظ ، مايقف شعر رأسك لدى رؤيته هولا، فتختفى من صفحة مخيلتك مظاهر الانسانية كنتيجة لتلك الرهبة لقلبك وهكذا تتناسى الحسنات تماما

فالثورة لا تخرج عن كونها منظرا سينميا يعكسه المخرج أمامك على الستار الفضى بسرعة متناهية للغاية. فتمر حوادثها على صفحات التاريخ . ولسوء الحظ لايستلفت نظرك وانت تقرؤها الا ماسطر فيها بالمداد الاحمر ، فترهب حوادثها جملة وتجزع . وهل يوجد مايستلفت النظر أ كثر مما يستدعى الخوف ؟

لم نستنكر مثلا حدوث مذبحة ضحى فيها عشرة آلاف شخص إبان ثورة هى في ذاتها تكديس لحوادث جيل أو أ كثر فى مدة قصيرة ، مع اننا لو راقبنا الحياة العادية نجد ان الجرائم التى ترتكب خلال الجيل الواحد تزيد كثيرا عما اقترف ابان تلك المجزرة التى تتخطى فترتها ابناء ذلك الجيل؟ اليست الثورة وثبة من قرن الى قرن ؟ اليست هى خطوة تمر بها الامة على عشرات من السنين تغفلها تماما فتمحوها من صفحات التاريخ ؟

الثورة هدم — هكذا يقولون — والهدم عدو التفكير ووليد الجنون .

كلا . فالهدم ابن العزيمة.ونتيجة التفكير الطويل.و إعمال الفكرة . فلاشك أن الثوره لاتهب الا لأصلاح الخطأ ودرأ الخطر. فالثورة بنت الاقناع اللاشعورى الذى يحتاج الى وقت والى براهين حسية ملموسة . وكل شخص لايقدر على الثورة بل وكل أمة لاتتحرك لها الا بعد ان تختمر مبادئها تماما في عقول أفرادها . ان الثورة لاتقوم عفوا و بلا تفكير ،ولكنه البناء هو الذى يتم بهذه الطريقة لانه من اختصاص الطبيعة البشرية التى تعمل بانانية لتنفيذ ماتراه صالحا ومفيدا لها شخصيا ، متغاضية تماما عن الصالح العام . فهى بعكس الثورة التى يناضل فيها الكل عن حقه المهضوم . و ينتج عن ذلك مع الأسف العمل للتغلب بالقوة على كل محاولة يحاول بها الانانيون الاحتفاظ بما استباحوه لانفسهم . و بالطبع ينتج عن هذا الصدام وقوع مجازر تعمل فى أعناق المترفهين والكسالى المستبدين . وفى الثورة يغلى الحماس فى صدور الفئة الغالبة الذين كانوا من المستضعفين فيظهر الرجل العادى بالمظهر الخليق به كانسان مفكر له عزة نفس.وله حق فى نعيم الحياة يطالب به . وهكذا يتيسر للمجموع القضاء على النظام المضر. فيتنفس الصعداء بعد ان شعر بثقل الاستعباد.وقد أزيل عن كاهله فيرجع الى مربضه متتبعا الحوادث

وتأخذ الطبيعة البشرية الاثيمة تعمل (غيرمنظمة) فى الاشادة على نظريات جديدة أولا بتعقل و باحتراس .ثم لاتلبث حتى تتغلب عليها المطامع وقصر النظر فينفض الليث عن ذاته سلطان النوم ثانية. ويضرب معالم الشر بكفه ضربة قاضية يرجع بعدها الى الاستكانة.

وتعود الطبيعة البشرية الى الاشادة مرة أخرى مندفعة بغريزتها العمياء مسترشدة بآراء جديدة وهكذا كلما ثبت فساد النظام قضى الجمع على النظام باكمله وتتبع ذلك الاشادة من جديد على أسس أرقى وتعاليم اسمى

هكذا كان الحال فى جميع الثورات التى انتابت العالم . فاقرأ سطورها كلها ولا تقتصر على سطورها الحمراء

تطرأ على الامم فترات تستسلم فيها الى نعاس عميق لاينبهها منه الا رجة

عنيفة يسمونها الثورة. فاذا لم تجتح حياة الامة عدة ثورات هلكت ، وذهبت مع الامم الغابرة في عالم النسيان

الثورة عملية جراحية يستأصل بها العضو غير المفيد من الامة، فتعود للجسد بعد ذلك نضارته

وليست الثورة هي المسلحة دائما بل هناك ثورات فكرية سلمية تجتاح الافكار القديمة فتقضي عليها

ومن مظاهر الثورة التضحية (حتى الثورات السلمية) وأكبر عامل على ذلك هو تلبية الدهماء لندائها قبل غيرهم فان الذى لا يملك مايرغب المحافظة عليه يسرع الى العمل بأمل نوال شيء من المساواة على الاقل

لنحاول تطبيق ماسبق ذكره على ثورة تحرير المرأة فى العالم الاسلامى بنوع خاص . وفى العالم العربى بوجه عام، فنقول ان الحجاب أصبح غير صالح للعصر الحالى وقد شعر الكل بذلك. فالشاب أصبح لايجد له شريكة موافقة لحياته . والاب أصبح بعد الابنة عالة عليه طول حياته ، والزوج يخاف عاقبة امرأته اذا توفى دون ان يترك مالا يسد حاجاتها حتى الضرورية، والاخ يحمل هم مستقبل اخوانه . فالمرأة بفضل النظام القديم أصبحت عالة على الرجل لايعرف كيف يقوم باودها وهو عاجز عن ملافاة مايحتاج اليه هو وعائلته الخاصة المسئول عقلا وعرفا عنها

ففكر قاسم أمين وفكر غيره ـ أجل . فكروا فى دفع الضرر الاقتصادى الذى سوف ينتج عن وجود نصف الامة بلا عمل يعولهم نصف الامة الاخر ، وفي دفع الضرر الوطنى الذى سوف ينتج بتخلى الناس عن نساء الوطن الى غيرهن من اللاتى هن أكثر ثقافة وأصلح من المصريات للقيام بادارة شئون المنزل وتربية الاطفال ، وفي دفع الضرر الاخلاقى الذى كان منتظرا حدوثه اذا اضطر ذوو النساء العاجزات عن العمل على التخلى عنهن، فلا يجدن سبيلا أمامهن للعيش الا ببيع العرض . ومن ينكر ان النظام القديم لم يكن يؤهل المرأة الا لتكون للرجل اداة للذة لا أكثر ؟ فالمرأة حسب النظام القديم، لم تكن الاوعاء يملكه الرجل لقضاء ضرورة . وكانت المرأة معتمدة تمام الاعتماد على الرجل ليطعمها ثمنا لما تسببه له

من اللذة . اليست المرأة التى ليس لها عمل غير الاجتهاد فى التزين والتجمل لتنال حظوة لدى الرجل كى تتنعم في ظلالها بماهوحق لها بالاقل كحيوان يحتاج الى الطعام والى الكساء والى المأوى لكي يحافظ على حياته. تماثل تلك التى تبيع ذاتها لكل طالب ؟

وشعرت النساء بأنهن بتن مهددات بالاجنبيات ولم يجدن لهن أملا في حياة هنية ، فاظهرن التمرد وجاهرن بعدم الموافقة على مجريات الحال . ولما كان صوتهن خافتا لايصل الى أذن كل انسان عاونهن البعيد والنظر من الرجال على تحرير ذاتهن رغبة فى ملافاة الكارثة المنتظرة

وحدث ان ضاق صدر بعض النساء للضغط الذى أحاط بهن فهزأن من فكرة التفريق بين ان يكن ملكا للرجل وفقا لاصول مرعية، و بين ان يكن له أيا كان مادمن يبذلن أنفسهن من أجل العيش، فلم يهتممن بحكم الوسط الناس

وكان أول من لبى الدعوة للثورة ضد القديم هؤلاء التعيسات، فتسبب عن ذلك تقهقر المحافظات وحبهن . ولكن هو الضغط الذى يدفع الشخص الى ارتكاب الصعب دون ان يهتم، فاقد من بعد تردد طويل. والآن ابحثوا حال هؤلاء المتبرجات تجدوهن لايعرفن لهن صناعة يأ كان منها الا ان يكن اداة للذة. فلا يسعين جهدهن لاقتناص سيد يطعمهن من فضلاته ؟ واما الرجل فلا أمل فى صيده الا بحبائل تجذبه وتقيده. وهل هذه الحبائل شيء الا التجمل . وفى اعتقادى ان السبب الاول فيما نسميه انحطاط المرأة. وسفالة الاخلاق هو النظام العتيق الذى اتبعناه أجيالا طويلة. ولم نحاول تطبيقه على سنن التطور. فلو كانت المرأة تعرف لها عملا غير الترغيب في ذاتها لما انحطت الى الدرك الذى نراها فيه اليوم .

فعند ماتستقر الاحوال ويصبح للمرأة عمل غير ذلك العمل المنحط ، تجدها مهتمة أغلب أوقاتها بعملها الذى تتعيش منه في الوقت الحاضر .

قد يقول شخص ان نزول المرأة . الى ميدان العمل يدعو الى حط الرجال وأنا بدورى أسأل ماالفرق بين ان يأخذ الرجل مبلغا يقتسمه مع أخر، و بين ان يأخذ قدرا ينفقه على نفسه فقط

وقد يقول قائل ولكن في استقلال المرأة هدم لنظام العائلة كما تفهمه الآن . وليس لى، على ذلك جواب الا القول بان التطور مؤثر فى جميع أوجه الاجتماع. وليس فى وجه واحد . فنظام العائلة لاشك سيتغير و يتشكل ولكن كيف ؟ لا أحد يدرى. فهو نظام وضعى. ويجب ملاحظة ان النظام الطبيعى الوحيد سيبقى خالدا مدى الدهر . وهذا هو نظام صلة المرأة بالرجل. كوسيلة للتناسل وابقاء النوع فهذا وحده الذى سيبقى أبد الدهر ولكن باى الانظمة ؟

ع . ع

***

لوجية الطغرائى

صفحة من الشعر العلمى الحديث

وصلتنا قصيدة عصماء نكتفى بنشر مستهلها لضيق المقام أملا فى أن ينحو علماؤنا المتأدبون على نحوها وينسجوا على منوالها .

قضيت فى الكولوج (١) من معهد الكبيج (٢)
أعوام (اقرأ) فى برنامج الأولوجى (٣)
إن شئت فاسألنى أنبيك عن نولوجى (٤)
لكن سأشترط أن تدفع الداميج (٥)
لو كنت تغضبنى أو تفقد الكوارج (٦)

.....

كانت أساتذنا رهطا من السافيج (٧)
فانلط « رقعته » أسموها نفسولوجى (٨)
و « النسخ » نبتاتونى (٩) « والرسم » ئظمولوجى (١٠)
والجمع والطرح والتضريب أجنتولوجى (١١)

فيلسوف عالم وأديب مبتكر

(أولا) كسرت كلمتى ٤ و ٥ لوزن الشعر (ثانيا) آخر حروف القصيدة كلها مكسورة (١) كلية (٢) الكرنب (٣) العلم (٤) معرفتى (٥) الاضرار (٦) الشجاعة ٧ المتوحش ٨ علم النفس ٩ علم النبات ١٠ علم العظام ١١ علم تكوين الاجنة والله أعلم .

تأملات في الأدب والحياة

***

الفوضى القائمة في الأدب العربي ، ليست في الواقع الا صورة من الفوضى العامة التي تملكت افكار أهل الشرق بعد الحرب العالمية . غير أني لا أستطيع أن أدلي برأى في فوضى الاقتصاد أو المال ، على الرغم من أني أعتقد بأن الفوضى لم تقف دونهما . كذلك لا أستطيع أن أدلي برأى في فوضى السياسة السرقية عامة . غير أني ان أردت أن أتخذ للسياسة الشرقية عنواناً هو سياسة مصر ، أيقنت بأن الفوضى في سياسة ممالك الشرق بالغة مداها الاقصى .

كذلك لا أستطيع أن أتكلم في فوضى الأدب بصورة عامة . اذن وجب على أن أحدد موضوعي فأدلي برأيي الذي أراه في فوضى الأدب من حيث تعدد الاساليب .

يعتقد الكثيرون أن مصر مركز النهضة ، أستغفر الله ، لا النهضة الأدبية وحدها ، بل النهضة «العلمية» في انحاء الشرق . ولهم يعتقدون هذا الاعتقاد أكبر العذر فيما يعتقدون به . غير أني لا أعرف إذا جاريتهم على اعتقادهم في أي شيء تنحصر مظاهر النهضة العلمية والأدبية ؟ في كل شيء . حسن . لنقل معهم في كل شيء تخلصاً من متاعب البحث . ولكن لننظر في ناحية بعينها من نواحي النهضة الأدبية ، ولندعي بأن من مظاهر النهضة الأدبية تعدد الأساليب العربية .

ان تعدد الاساليب ولا شبهة دليل على الرقي الأدبي وعلى الاكباب على المطالعة والدرس . غير أني أرى في تعدد الاساليب روحاً فوضوية غريبة . لأن تعدد الاساليب في أول ما يدل عليه ، انتهاج لطرق في التعبير تختلف عن الطرق التي انتهجها القدماء . وهذا حسن الى حد ما . ولكن الفوضى آتية من ناحية أننا لا نبالغ في احتذاء الأساليب العربية المنتقاة . فلكل لغة أساليبها الراقية ولكل منها مثالياتها الاسلوبية . وبالقياس على هذه الاساليب يكون بعدنا أو قربنا من المثل

العليا فى أسلوبه الأنسانى . اذا صح هذا ، واذا صح لنا أن نتخذ هذه النظرية قاعدة ، خشيت أن أقول اننا فى هـذا العصر أبعد عن أن نحتذى الاساليب المنتقاة التى جرى عليها حتى أدباء العصر القريب .

أما نزعة بعض الكتاب الى احتذاء الاسلوب العامى فى الكتابة العربية ، ودفاعهم عن هـذه الطريقة السفلى ، فلا سبب له عندى ، إلا العجز ، وهم في نظرى أكبر الدجاجلة الذين نبتوا فى تربة الأدب ، كما تنبت الطفيليات حول الغرس النافع، بلا حاجة اليها .

***

فى كل ماتقوم عليه المثل العليا فى الأخلاق ، وهى التى يظهر أثرها المباشر في العمليات ، لايحتاج الانسان الى شيء أكثر من أن يفهم معنى التضحية ، وأن يجعل لهذا المعنى أثراً فى أعماله وتصرفاته . على أننا مع الاسف لم نعرف بعد ما هي التضحية ولم نفقه كيف يمكننا أن نجعل لها أثراً فى أعمالنا .

خذ أبسط الأشياء احتكاكا بالحياة . خذ حب النقد للوصول الى الحقيقة. فانا لم نعرف بعـد من النقد الا أنه وسيلة للعداء هى أقرب الوسائل ، وطريقا للتنابذ هى أسهل الطرق . فاذا أردت أن ترمى بالسخافة فانتقد الأدباء . و إذا أردت أن توسم بالجهل فانتقد العلماء. واذا أردت أن تموت جوعاً فانقد أعمال حزب الأغلبية فى مجلس النواب .

الاعتداء الذى توقعه الامم القوية على الامم الضعيفة ، ليس بأكثر من تكرار لفعل طبيعى أتاه الانسان بحكم نزعته الحيوانية عدة ملايين من المرات .

فالانسان قبل زمان التاريخ لم يفز بغذائه و بزوجه بل و بحياته نفسها الا من طريق الاعتداء على ما يملك غيره من حق أو حطام . وفي ظنى أن قول الشاعر « ومن لا يظلم الناس يظلم » فيه تعبير حق عما فى الانسان من هذه النزعات الغريبة.

وعلى أية من القواعد نحاول اليوم أن نحول دون اعتداء القوى على الضعيف ، وهذا أمر يكاد يكون في حكم السنن الطبيعية الثابتة ؟

١٢١٩

غير أننا لا نريد أن نتساءل فى هذا . بل نتساءل لماذا يسلم الضعيف بحقه تسليم تفريط ان كان فى مستطاعه الدفاع ولو الى حين . أظن أن السبب في هـذا راجع الى أن الضعيف يقدر الحياة أكثر مما يقدر الحق . على أنه لو قدر الحق ولو قليلا لاستطاع أن يرد كثيراً من عاديات الغاصبين .

من الأشياء الجارية على ألسن الناس ما لو قلبت معناه لخرجت منه بمعنى فيه روعة جديدة ، بل روعة تبز روعته الاصلية الجارية على ألسن الناس . فالناس يقولون « الحق للقوة » . فاذا قلت مثلا « القوة للحق » وقعت على معنى اسمى من المعنى الاول وأجدر بأن يكون المحرك الأول لقوى الجماعات .

على أن كثيراً من الناس يتشككون فى المعنى المدرك من قلب الامثال السائرة. والسبب في هذا أن الناس بطبيعتهم نزاعون الى التأثر بالماديات . فالقوة مادية والحق معنوى . لهذا يعتقدون بصحة الاول ولا يدركون للثانى الا معنى مجرداً غير ماثل أمامهم .

كذلك الحال اذا رجعت الى أهل الوثنية وقلت لأحدهم « الصنم فى الله » لرد قولك فوراً بأن « الله فى الصنم » . على أن الحقيقة على عكس ذلك تماماً . وذلك لانه يدرك المادة ادراك حس ، ولا يدرك الله الا ادراك معنى . وعلى هذا قامت الكفايات الانسانية ، وعلى هذا تووريثت على مر السنين والاحقاب .

***

كنت أسير على شاطىء البحر الابيض المتوسط ذات يوم وقد تجمع على الشاطىء عدد من الاطفال الصغار انقسموا الى جماعات عديدة . فاخذ جماعة منهم يصورون على الرمال صور حيوانات عديدة . وأخرى في تخطيط صورة بيت كبير ، وبدأ الاطفال يتنازعون ملكيته . وبدأت جماعة أخرى تبنى من الرمال صور بيوت شبيهة بالبيوت التى يبنيها النمل وكثير من الحشرات. وبينما كنت أجيل الطرف فى الأعيب الأطفال واتأمل فيما ترمى اليه تصوراتهم؛ هاجمتنا موجة كبيرة ذهب مدها الى آخر ما خطت يد الاطفال على الرمال ،

فلم تترك منه عوجاً ولا أمتاً . كأنما الرمال اللينة قد أبتلعت مع مد الموجة كل ما رسم فوقها من آثار .

أليس فى هذه الحالة شبه باغتصاب حق الشعوب قسراً وقوة . أين الأثر الذى خلفه الرومان فى أرض بريطانيا العظمى ؟ وأين الأثر الذى تركته مصر في غربى آسيا. وأين الأثر الذى تركه الاسكندر المقدونى فيما فتح من ممالك العالم ؟ وأين أثر القوة التي اغتصبت حقوق الشعوب على مدى الأزمان ؟ أين الأثر الذى خلفه انيبال وقمبيز وهولاكو وجنكيزخان ؟ مدت عليهم موجات الحق الطبيعى ، وطمت عليهم فورات الشعوب ؛ فلم يبق من ذلك الا الامم ؛ تتناوبها دورات الانتصار والانكسار ؛ وهي ثابتة لا تتغير ولا تتبدل .

***

ليست القوة المادية وحدها دليلا على تسود الشعوب من حيث الصفات المدنية وان كانت دليلا لا يدفع على تسودها الحربى . فقد غزى الرومان بلاد اليونان ؛ وكانوا أقل من اليونان كفاية ؛ من حيث المواهب العقلية والأدبية .

من يدرينا اليوم لعل فى شعوب الشرق من المواهب الكامنة مايظهر بعد قليل من الاجيال وأن استعمارها اليوم هذا الاستعمار القائم على القوة وقتل الكفايات كان من أكبر البلايا التى أصابت الانسانية ، وصدتها عن التقدم والارتقاء .

***

ذاع الاعتقاد بين الباحثين في الاجتماع ، أن الترف والانغماس فى الملذات ، مما يقذف بالامم والشعوب فى مهاوى الفساد والانحلال . غير أنى أرى أن الانغماس في الملاذ والترف ، مظاهر تدل على عوامل للانحلال وعناصر للفساد أبعد غوراً في نفوس الافراد والجماعات مما يتخيل لكثيرين من الباحثين .

***

للسلطان عبد الحميد ، رغم استبداده ورغم ضعف أعصابه والظروف الغريبة التى أحاطت بسنى حكمه ، أو بالاحرى الظروف التى خلقها هو من حوله ، كلمات يؤثرها عنه التاريخ . فقد قال مرة ، وقد حوطته أوربا بما استطاعت من قوة

وعنف ، «ان أوروبا تحارب بنا حرباً دينيا فى قالب سياسي» . ولم يقصد عبد الحميد بالضرورة ان أوروبا تحارب به حرباً دينية كالحرب التى قامت بين الاسلام والنصرانية فى القرون الوسطى وتعرف بالحرب الصليبية . بل يقصد أن أوروبا المسيحية جامعة لا تحتمل أن يكون للشرق الاسلامى سلطة على شعب من شعوبها . على أنه رمى بهذه الكلمة الى غرض آخر . رمى بها الى استفزاز المسلمين في أنحاء الشرقين الاقصى والادنى ، ليكونوا جامعة يقاوم بها جامعة أوروبا المسيحية. غير أن صرخته هذه لم تفده فتيلا . فان استبداده واستبداد عماله وضعف حكومته وتحكم الصور الدينية الرجعية فى ادارة الحكومة كان سببا من الاسباب التى فتت في عضد الامم الاسلامية التى وقعت تحت حكمه ، وافقدت حكومات الامم الاسلامية المستقلة كل ثقة في حكومة أمير المؤمنين .

واليوم يقوم فى روع الناس أن مارمى اليه عبد الحميد أصبح خيالا ، بعد أن فطنت الامم الى فكرة القومية وتركت الاستمساك بجامعة الدين . وهذا صحيح . غير انى أرى على الرغم من كل هذا ان جامعة شرقية سياسية تعمل على مقاومة النفوذ الاوروبى والاستعمار الاجنبى يكون لها أثرها الخالد لا في استقلال الشعوب الشرقية وحدها ، بل فى العمل على ترقية الانسانية فى مجموعها .

***

اذا استطعنا أن نفكر تفكيراً جدياً فى تكوين عصبة شرقية سياسية تعمل على تحرير الشعوب الشرقية، وعمدنا الى تنفيذ هذه الفكرة، نكون قد خطونا بالفعل خطوة كبيرة نحو العمل فى سبيل استقلال الشرق. أما اذا تكونت العصبة بالفعل، فقد نقول باننا قطعنا نصف الشوط الى استقلال الشعوب الشرقية .

وأمامنا الآن حكومتان نظن أنهما تحملان أكبر مسؤلية أمام شعوب الشرق ، اذا هى احجمتا عن الدعوة لهذه العصبة . هاتان الحكومتان هما حكومتا فارس والافغان . ولهذه النظرية أسباب كثيرة تؤيدها .

أولا — انهما الحكومتان المستقلتان فى الشرق ، بعد تركيا .

ثانياً — أن موقع بلادهما الجغرافي يجعل مصارعة أوروبا لهما أمراً صعباً ،

على الضد من تركيا. فان موقع بلادها الجغرافي يفسح المجال لأوروبا فتعمل على تحويطها باسباب النزاع والخلاف السياسى والحروب .

ثالثاً — ان لديهما من القوة ماتستطيعان به الدفاع عن حريتهماواستقلالهما .

رابعاً — وذلك أهم الاشياء عندى ، أن شبيههما في الشعوب الحربية التى عرفت مكانتهما فى كل عصور التاريخ .

ان عصبة الامم بعد أن انتصر فيها يهوذا الاسخريوطى - لويد جورج - على المسيح الجديد - ويلسون - لابد من أن تقاومها فى الشرق عصبة سياسية تحترم الشعوب الشرقية قراراتها وتنفذها في مجموعها بدقة وعناية وتضحية من الاموال والانفس والثمرات ، اذا أراد أهل الشرق أن يقاوموا أوروبا بنفس السلاح الذى يستخدم فى سبيل استعبادهم .

*
* *

ولد الشرق ميلاداً جديداً يوم أن هب يطالب برد حريته المسلوبة. ويعمل على احياء مدنيته البائدة . غير أن الشرق يحتاج اليوم الى صفات أخلاقية نرى أن الامم الشرقية أبعد الامم عن أن تعرف لها قيمتها السياسية .

لم يعرف الشرقيون بعد تلك الفضائل التى ينطوى عليها ضبط النفس عند وقوع الملمات الكبرى . وما أكثر ملمات الشرق .

لم يعرف الشرقيون بعد معنى التضحية عند حلول الازمات ، وما أكثر الازمات التى تصيب شعوب الشرق .

لم يعرف الشرقيون معنى الصراحة فى معالجة المشكلات التى تحتاج الى المصارحة الجدية . وما أكثر المشكلات التى يخلقها الغرب للشرق.

واذا أردنا أن نعدد الاشياء التى لم يعرفها الشرق بعد ، لذهبنا في سلسلة طويلة منها . غير أنى أعتقد أن بضعة أفذاذ من الرجال يعطون الشرق المثل العليا في الاخلاق عملياً ، لقادرون على أن يبعثوا في النفوس تلك الشرارة الاولى ، التى لا يستغني عنها فى توليد حريقه عظمي يمتد لهبها .

فيلو بونس

الزولوجيا
أو
مبادئ علم الحيوان
— ٧ —
«*»

تابع تقسيم الحيوانات

هنالك «جذع» phylum آخر من الديدان يدعى اصطلاحا «الانيليدا» Annelidae أى «الديدان الحلقية» Ringed-worms. وهذا الجذع يحوى كل الديدان الارضية المعروفة، والديدان البحرية على كثرتها وتعدد صورها، وأخيراً العلق بأنواعه.

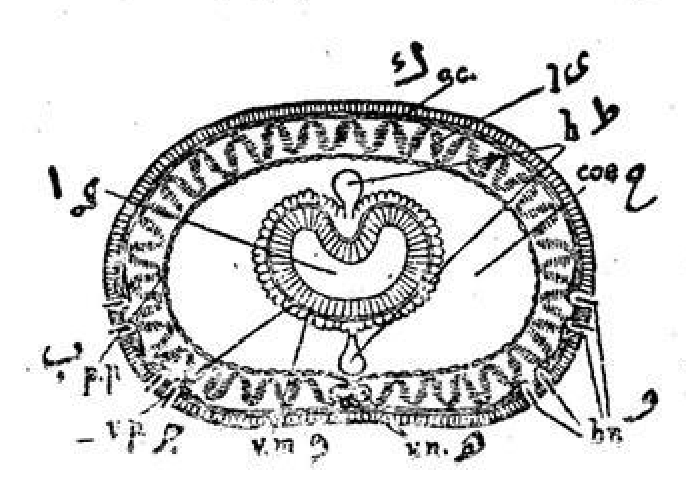
أما الصفة الاساسية في هذه الفصيلة فتكرار أجزاء أو أعضاء متشابهة الأوصاف فى سلسلة متتابعة. وهذا النوع من التكرر العضوى له أثر كبير فى تركيب الجسم في الحيوانات العليا التابعة لهذا الجذع. ويدعى اصطلاحا Metamerism أى التشابه التركيبى المتتابع. فاذا نظرنا فى جسم دودة من ديدان الارض، نرى أنها قد قسمت بنظام دائرى الى عدد من الحلقات. وكل من هذه الدوائر تدعى اصطلاحاً Somite أى حلقة. وفى كل منها نعثر على ثمانى شعرات Bristles. وفي كل من الحلقات «عقدتين» مزدوجتين من الجهاز العصبى الرئيسى. ولا ريبة في أن تكوين الجهاز العصبى في هذه الحيوانات من أخص ماتمتاز به الديدان الحلقية. فانه يتكون من عقدتين مزدوجتين مترابطتين جهد الترابط تستويان فويق الانبوبة أو القناة الهضمية من الامام، وتدعيان عادة «المخ» Brain ثم سلسلة من العقد المزدوجة

السطح الظاهر لدودة من الانيليدا (ب) الدوائر المتتابعة مع شعراتها الثمانية (هـ) حلقة بدنية أو جسمية

الشديدة الترابط تستوى تحت القناة الهضمية Gut التى تسكون بين الطبقة العضيلة والقناة الهضمية ، بحيث لايزيد مايوجد فى كل من الحلقات عن عقدتين مزدوجتين وهذه العقد السفلى ترتبط بعضها ببعض بواسطة لفائف طولية من المادة العصبية وتدعى هذه اللفائف اصطلاحا Commissures أما السلسلة العقدية فى مجموعها فتدعى إصطلاحاً Ventral nerve-cord أى الوتر العصبى الابطن ، وهـذا الوتر يتصل بالمخ بواسطة « عصب طوق » Nerve collar أو « طوق عصبى » يكون محيطاً بالقناة الهضمية من الامام .أما الجزء الاسفل من الحيوان فيدعى «البطن» Ventral (من Vevter اللاتينية ومعناها بطن) .والجزء الاعلى يدعى «الظهر» Dorsal (من dorsum اللاتينية أى ظهر) .

في « الانيليدا » تعثر لاول مرة فى تاريخ التطور الحيوانى على مايدعوه الباحثون « بالفجوة الجسمية الثانوية Secondary body-cavity و يطلق عليها اصطلاحا اسم Coelom . وهذه الفجوة تتكون من سلسلة من الفجوات، واحدة فى كل حلقة ، تحيط القناة الهضمية Gut وتفصلها عن البشرة .

اذا أردت أن تعرف على وجه التقريب كيف يتكون الجسم في ديدان الارض ، فخذ أنبوبة زجاجية تمثل لديك القفاعة الوسطى ، أو الفراغ الاوسط ، وضع من فوق هذه الانبوبة سلسلة من حلقات المطاط الواحدة تلو الاخرى ، ثم ضع فوق الانبوبة بعد ذلك قماشاً يشملها كلها . فالقماش يمثل لك البشرة وحلقات المطاط تمثل لك الفجوات الثانوية.وكما يمكنك أن تدرك بسهولة ، تجد أن حلقات



قطع عبرى لدودة من الانيليدا (و) الشعرات (ح) الفجوة(ط) وعاء دموي (ى) العضلات (ك) العضلات الدائرية الخارجية (ب) البريتون الجدارى (د) عضلة حشوية (ه) وتر عصبي أبطن (ج) البريتون الحشوى

المطاط التى نعبر بها عن الفجوات الثانوية ؛ ليست مجرد سلسلة من الفقاقيع تتوسط بين أعضاء أخرى ، بل تتكون في الحقيقة من سلسلة متتابعة من الاجربة (جمع جراب) Sacs لكل منها طبقة داخلية وأخرى خارجية . أما الطبقة الخارجية فتجاور البشرة وتدعى اصطلاحا Parietal peritoneum أى « البريتون الجدارى » ، فى حين أن الطبقة الداخلية تنضغط من ناحية القناة الهضمية ، وتدعى اصطلاحا Visceral peritoneum ، أى « البريتون الحشوى » ، (نسبة الى الاحشاء) . فعند ماينمو جسم الدودة ، تتطور الخلايا التى تتكون منها الطبقتان الى ألياف عضلية . فالالياف العضلية التى تتكون من الطبقة الخارجية تنتظم فى وضع طولى ، وتكون ما يسمى « بالتعضل الجدارى » parietal Musculature . فى حين أن الالياف التى تتكون من الطبقة الداخلية تدعى اصطلاحاً Visceral muscles أى « العضلات الحشوية » .

وفضلا عن هذا فهنالك عضلات دائرية خارجية تستمد من خلايا البشرة التى تقع خارج العضلات الطولية .

أما الفجوة الجسمية الثانوية Coelom فمن خصائصها أنها تساعد القناة الهضمية والبشرة على أن يتحرك كل منهما حركة مستقلة عن حركة الآخر . ولقد رأينا فى كل صنوف الديدان التى أتينا على وصفها حتى الآن أن الجسم كله يتحرك دفعة واحدة ، على الضد من « الانيليدا » . فاننا يمكننا أن نعتبر أفرادها « كحيوان فى حيوان » لان الحركة التى تسببها القناة الهضمية مستقلة تماماً عن الحركة التى تسببها البشرة . فان عضلات القناة تمضى في الانقباض الواحدة بعد الاخرى بطريقة تسبب موجة من الانقباض المستمر على طول القناة . وهذه « الموجة الحركية » تدعى اصطلاحا peristalsis وتأثيرها ينحصر في أن تدفع الطعام على طول الانبوبة . على أن موجة حركية كهذه تقع فى العضلات الدائرية ؛ وتأثيرها ينحصر فى أن تدفع المائع المائى الذى تتضمنه الفجوة من فلقة الى فلقة Segment . ذلك لان الاجربة الفجوية

يتصل بعضها مع بعض بثقوب صغيرة تقع تحت القناة المضمية . وهذه « الموجة الحركية الخارجية » Outer peristalsis تزيد من طول الدودة، ويمكنها من أن تدفع مقدمها الى الامام . وعند ما تبدأ حركة الحيوان الى الامام على هذه الصورة ، يثبت مقدم جسم الحيوان بالارض بواسطة شعراته ، ومن ثم يجذب الجسم بانقباض العضلات الطولية . أما الطرف المؤخر من الجسم فيثبت حينئذ في الارض ، وبتكرار فعل الموجة الحركية الخارجية يأخذ مقدم الجسم في الحركة . وفى هذه العملية تنحصر الحركة بمعنادا المعروف فى هذه الديدان .

ولا يجب أن نغفل عن أن « فجوة جسمية أولية » Primary body-cavity أو بالاحرى سلسلة من « الفراغ الدموى » Blood-space تكون فى جسم الانيليدا فضلا عن الفجوة « الجسمية الثانوية » التى تكلمنا فيها من قبل . أما الفجوة الجسمية الاولية فتأخذ شكل سلسلة من الانابيب المتفرعة تحتوى على السائل الاحمر، وهذه الانابيب موزعة على كل أجزاء الجسم . وهذا السائل الاحمر، هو بالضرورة مانسميه « الدم » أو دم الدودة .

ان كل أعضاء هذا « الجذع » تكون في بعض أدوار حياتها من الحيوانات الحافرة . وأغلبها يحفر فى الرمال وفي الطين المستقر فى قاع البحار ، ولا تبرز هذه الديدان الى السطح الا بعد أن تنضج خلاياها التناسلية ، وتكون على وشك لفظها بعيداً . وفى هذه الآونة تظهر هذه الحيوانات متكاثرة بحيث لا يحصى عددها ؛ فتكون طعاما لا ينفذ لسكان جزائر المحيط الهادى ويدعونها « بالولو » Palolo

أما الخلايا التناسلية فتتكون من جدران أجربة الفجوة الجسمية الثانوية ؛ وفى بعض حالات قليلة يلقطها الحيوان خارجا بأن ينفجر جسمه انفجاراً . ولكن في أكثر الحالات تظهر في الجسم فتحات تدعى اصطلاحا Coelomiducts أى « الثقوب التناسلية » Reprodvctive pores تلفظ منها الخلايا التناسلية .

ولا يعرف حتى الآن أن من « الانيليدا » مايسبب ضرراً للانسان أو لحيواناته أو لمحاصيله الزراعية . بل على الضد من ذلك ؛ وكما أثبت العلامة

« داروين » نحب أن « الانيليدا » تعتبر « حارث الارض الطبيعي » الذى يساعد الانسان على الزراعة ، لانها تحفر طريقها فى داخل الارض ، وبعد أن تملأ داخل جسمها بالطمى ، تعود الى السطح ، وهنالك تفرغ مافي جوفها ، بعد أن تملأه بالطمى من باطن الارض . أما الديدان البحرية فمورد من الغذاء لاينفد بل هو مورد ضررى لحياة الاسماك التى تغتذى بها .

الذكرى

— من قصيدة غنائية —

أما التى خلفتنى بعد فرقتها لاأشكر « الحب » مكلوماً بذكراها
فما أزال سعيداً حين أذكرها وما أزال شقياً حين أهواها
ما كان أرحمها لما نعمت بها وبعد فرقتها ما كان أقساها
لو كنت اعلم ان الوعد غايته ان لا تعود وانى بين جرحاها
لكنت آثرت ان افنى معانقها وان اجود بروحى لاثماً فاها !

ابو شادى

الصدى ونرجس

من أساطير الميثولوجيا

اليك رواية عذراء أصابها الحزن والاسى وتملكها الالم والشجن، لانها كانت تكثر من الكلام والثرثرة، وكانت تحاول دائما أن تكون لها الكلمة الاخيرة فى كل موضوع شترك في مناقشته أو الكلام فيه. وفي استطاعتك أن تعرف بنفسك اذا كانت هذه الرواية صحيحة وأن تحقق نصيبها من الصواب، اذا اجتزت يوماً نفقاً من الانفاق، أو توغلت في جوف غابة من الغابات الملتفة الاغصان. ألم يقع لك يوما أن تمر من تحت جسر في احدى نزهاتك على ظهر النيل الابدى، وأن ترفع صوتك بالكلام؟ اذا كنت قد فعلت، فلابد من أن تكون تلك الروح الحيرى التى نسميها «الصدى» والتى تقطن مثل هذه الاماكن المنعزلة، قد رددت ماتفوهت به، وأن تكون قد هزأت بك اذ توهمك بان شخصاً يعيد عليك ماتقول.

ما أشقى الصدى وما أمر عيشها؟ انها الآن ليست أكثر من «صوت». غير أنه مر عليها عهد كانت تمرح فيه وترقص في ظلال الغابات المخضوضرة الناضرة، مع غيرها من الحوريات. ولم يكن فيها سوى منقصة واحدة. فانها كانت كثيرة الكلام، ثرثارة. ومن غريب أمرها انها كانت تروى ماتقول فى قالب يغرى سامعيها بها حتى ينسون الزمان، ويمر عليهم الوقت سراعا وهم غير شاعرين.

وكثيراً ما كانت تهبط «يونو» ـ Juno ـ الى الارض، وتظل مصغية الى ماتقول الصدى ساعات تلو ساعات. غير أنها لاحظت يوما أن الصدى قد أخذت فى تسليتها على صورة رغبت من طريقها فى أن تسر «جوبتير» ـ Jupiter، وتحظى به، لأنه كثيراً ما كان يحنق على «يونو» ويحاول أن ينفرد بذاته.

بدأ الحقد يعمل فى صدر «يونو» حتى اذا اشتعلت ناره أصبح كراهية شديدة تحترق بين ضلوعها نحو الصدى. ولم تلبث الا قليلا حتى انتقمت منها انتقاما غريباً، بان أفقدتها قوة النطق، وربطت لسانها عن الكلام. وبذلك أخذت الصدى تكرر آخر المقاطع التى يتفوه بها غيرها. وذلك كل ماتركت لها

« يونو » من قدرة على الكلام .

اما نرجس ففتى جميل الطلعة ، سليل آلهين من آلهة الماء . وكان فوق ذلك شجاعاً كبير النفس ، محبوباً أينما حل ، مرموقا بالتجلة أينما كان . ولكنه كان بلا قلب ، لانه لم يحب في حياته أحداً ، سوى نفسه .

وذات يوم أخذ نرجس يطوف خلال الغابة مع رفقائه ، ووقف يقتطف زهرة من الزهرات البرية ، فابتعد عنه رفقاؤه ، وافتقدهم فلم يقف لهم على أثر . و بدأ يفكر فى أية طريق يسلك ليصل اليهم ، و بينما هو فى حيرته ، مر بجانب شجرة البلوط التى كانت تسكنها « الصدى » .

وفى اللحظة التى وقعت عين الفتاة عليه ، وقعت فى شراك حبه وهامت به ، وأخذت تتبع خطواته خلال الغابة ، محاولة أن تلقى اليه بكلمة تعبر بها عن شعورها . ولكنها كانت غير قادرة على النطق ، عاجزة عن الكلام .

وظلت الصدى على هذه الخطة زماناً ، تتبع نرجس ، بينما هو يشق طريقه بين الاغصان باحثاً عن أصدقائه ، والصدى تتسلسل خفية من ورائه ، حتى اذا ما شعر الفتى أنه ضل طريقه فى الغابة الموحشة رفع صوته منادياً :

« أمن أحد هنا » . وعندئذ اختفت الصدى وراء شجرة وكررت قوله ـ « هنا » .

فأخذ الرعب من الفتى كل مأخذ ، لانه كان يظن نفسه فريدا فى جوف الغابة . وأخذ يتلفت يمنة ويسرة ، ولما لم ير أحداً يمكن أن يكون السبب فى اصدار هذا الصوت ، صاح ـ « تعال » ! فاجابته الصدى بنفس الصوت ـ « تعال » ! !

هنا ملأه الخوف وأخذته الوحشة الشديدة . اذ لم ير أحدا ، ومع كل ذلك فكانت كل صيحة من صيحاته تتكرر على نفس الصورة التى تخرج بها من فمه . فمضى يصيح ويسأل ، وكانت الصدى تعيد ما يتلفظ به ، ولم يكن في استطاعتها أن تظهر نفسها لنرجس ، لئلا يغضب أو يفزع ، ولكنها مع ذلك لم تكن قادرة على أن تحبس أنفاسها فلا تجيب بشيء أو تمتنع عن ترديد ما تسمع .

ولما أن ملأ الحنق صدر نرجس صاح « لنجتمع هنا » ! فاجابته الصدى

بنبرات ملئت فرحا وسروراً ، وبرزت من وراء الشجرة لتلاقى من تيمها حبه ، وشفها غرامه .

فلما بلغت الى حيث كان ، حاولت أن تلقى بذراعيها حول عنقه الجميل ، لتعبر له بهذه الوسيلة عن الحب الذى يضطرم بين ضلوعها ، لانها لم تكن تستطيع التعبير بالكلام . غير ان نرجساً كان يكره كل الكره أن يظهر له أحد حباً أو يبثه غراما . فدفعها عنه بخشونة ، وهرب منها متغلغلا فى وحشة الغابات ، والى أقصى أعماقها المخيفة .

ولقد فعلت نظرات نرجس الجافية فعلها في نفس الصدى ، فاختفت فى الغابة واسترسلت مع أحزانها وأخذت تبكي مر البكاء ليلا ونهاراً ، حتى لقد منع دليها حزنها أن تذوق طعاما أو تتبلغ بشراب . فاخذ وجهها يصفر ، وجسمها ينحل ، وأخذت تتحول الى خيال ، حتى فنى جسمها وفرى عظمها ، ولم يبق منها الاصوت يتردد بما يقال .

ومذ ذلك الحين كمنت فى جوف الغابات والاماكن الموحشة الساكنة ، فلم يعد أحد يرى شيئاً من جمالها الفتان . ولا من سواعدها البضة البيضاء . التى كانت تتسلق بها أشجار الغابات الناضرة . غير أن صوتها لا يزال يسمع حتى الآن بين التلال ، والاشجار تجيب كل مناد ، وتردد مايقال من الكلام .

***

وحنق جوبيتر على نرجس . وكان شديد الزهو بجماله ، حتى زين له زهوه أن يقف على حوافي الماء الراكد ينظر الى جماله فيه . وبينما هو ذات يوم واقف يتطلع الى جماله الفتان فى صفحة الماء ، مسخه « جوبيتر » زهرة ماترى حتى اليوم الا على حوافى الغدران الجارية ، وقد تدلى رأسها كما كان يفعل نرجس ، لترى جمالها في صفحة الماء .

مبادىء الفلسفة الحديثة

— ٢ — الفلسفة والحياة

٣ — البيئة أو المحيط [1]

فى كل أدوار حياتنا نشعر بأننا محوطين ببيئة أو محيط يلزمنا أن نقف عند حدود مخصوصة ، ويطلب منا بعض مسؤليات معينة . وفى جوف هذه البيئة نولد ، وفيها نبقى من غير أن نستطيع أن نخلص من مؤثراتها طوال حياتنا ، حتى يزيحنا الموت من فوق الملعب الدنيوى . ولا جرم أننا فى سبيل الحصول على « غاياتنا » لانهتم بشىء اهتمامنا بالبيئة التى تضمنا . فانها تساعدنا حيناً ، وتصدنا عن أغراضنا حيناً آخر . ثم تربكبنا آونة ، ولا تلبث أن تحبونا العون أخرى . وعلى الجملة ، فالبيئة لدى الواقع ، هى مجال العمل والنشاط . أما تأثيرنا العاكس فى البيئة ، ففيه كل مانعنى « بالحياة » .

والآن ننظر بايجاز فيما نعنى « بالبيئة » والصور التى تتشكل فيها . وعلى ريبة فى أن هذا مما نحتاج اليه فى درس الفلسفة فى فروعها العليا . ولذا وجب على دارس الفلسفة أن يعنيها ، وأن يعرف لها شأنها فيما هو مكب على درسه .

* * *

(١) البيئة الطبيعية

أول ما يطرأ على فكر الفرد ، وأول ما يستبين من أمر البيئه ، أنها طبيعية ، أى فيزيقية . أما ما يقصد بالبيئة الطبيعية أو الفيزيقية ، فنظام الاشياء والحوادث التى نتصل بها فى حياتنا من طريق الوجود المادى أو الجسمانى . ومن خصائص البيئة الطبيعية أنها باقية سرمدية ، وأن لا مهرب للانسان منها . إنها تغذينا وتعضد حياتنا ، كما نستخدمها فى الوصول الى كثير من أغراضنا ، ولا يندر أن تكون مصدراً يرمينا بالالم والمضرات ، وهى فوق هذا مؤثر لا يجب أن نغفل

---

١ — نشر البحث الاول فى عدد يونيو الماضى .

عن أن نحسب في الحياة حسابه. وأخيراً يلوح لنا أن البيئة هى التى تحطم وجودنا وتفنينا.

أما البيئة الطبيعية أو الفيزيقية، فيمكن أن نعد لها ثلاثة أوجه أو صور تظهر فيها. ولا جرم يكون من الاوثق أن نعينها قبل أن نمضى فى البحث. أما هذه الاوجه فتنحصر فى المادة، والزمان، والمكان.

(ا) المادة

فى البيئة الطبيعية كثير من الاشياء الخاصة أو «الموضوعات» لها كثير من الصفات المتباينة، أو الخصائص المختلفة. ونحن انما نعمد الى تقسيم هذه الاشياء أو الموضوعات بطرق متفرقة متنافرة، وعلى مجموعاتها المتنافرة. نصرف أسماء مختلفة، فنقول جبل وشجرة وتفاحة وأرض ونظام شمسى وهكذا. غير أننا مع هذا نجمع هذه الاشياء أو الموضوعات المختلفة من غير تمييز بينها فى مجموع أو مرتبة واحدة، من غير أن نعير اختلافاتها الفردية التفاتاً. وعلى ذلك المجموع الكبير الذى يشمل كل هذه الاشياء أو الموضوعات نصرف اسم «المادة». «فالمادة» إذن هو الاصطلاح العام الذى نتخذه أساساً أو قاعدة لما نعنى من البيئة الطبيعية

(ب) الزمان

للاشياء التى نقع عليها فى البيئة الطبيعية أوجه من الصلة غير الوجه المادى. فانها تتشارك فى الوجود، بمعنى أن وجود بعضها يتبع وجود بعض؛ فيتقدم بعضها على بعض أو يتأخر عنه. وهذه الصلات أو العلاقات، سواء أكانت تشاركا أو تتابعاً فى الوجود، هى كل مانقصد من اصطلاح «الزمان». وعلى هذا يكون الزمان هو الاسم الذى نصرفه على ماندرك من الصلات أو العلاقات الواقعة بين الاشياء أو الموضوعات، على قدر ما هى متغايرة.

ولا يجب أن نغفل عن أن المادة والزمان والمكان لاينفصل بعضها عن بعض انفصالا نهائياً. على إننا معهذا لانستطيع أن ندرك لأول وهلة أن بعضها مستقل الوجود عن بعض. إنها ليست بأكثر من ثلاثة أوجه أو صور تتشكل فيها البيئة ما دمنا نقصد بالكلام البيئة الطبيعية، وهي في وجوه ما يتوقف وجود

بعضها على وجود بعض . وكذلك يجب أن نذكر دائماً أن الزمان لا ينحصر جملة في النظام المادى . فالفكرات تتغاير ، والعضويات تبلغ حد الهرم ، كما أن للنظامات الاجتماعية تاريخها . وعلى هذا يتضح أن الزمان هو من صنع بيئتنا ، سواء أكانت طبيعية أو غير ذلك .

(ج) المكان

للاشياء المختلفة أو الموضوعات التى تتضمنها البيئة الطبيعية ، علاقات محدودة تصل بين بعضها وبعض فى الحجم والتناسق والبعد والقرب والاتجاه في حالتى الحركة والسكون . ومجموع هذه العلاقات نعرف عليها اسم « المكان » فالمكان على هذ اسم نصرفه على صور مختلفة من العلاقات التى تختص بها الاجزاء المتباينة التى تكون « المادة » ، على قدر ماهى ذات مظاهر كمية ، أى ترجع الى المقدار المقيس بثقل مادى .

...

(٢) البيئة الحيوية

من الاشياء التى تحتوى عليها البيئة مجموع اختص بصفات أساسية معينة ندعوها « الحياة » . فالاشياء أو الموضوعات « الحية » ندعوها « العضويات » اصطلاحا . أما صفاتها المميزة لها فتنحصر في أوجه من النشاط كالغذاء والتناسل والنضج والانحلال . وهنالك علاقة ماتصل بين جيل وآخر من أجيال الصور الحية . وهذه العلاقة ندعوها « الوراثة » . وهذه الصور العضوية تكون « المحتوى » أو الاساس الذى تقوم عليه البيئة الحيوية . أما المجموعان أو المرتبتان التى نقسم بهما البيئة الحيوية فهما الحيوان والنبات ، مع تقسيم الاولى الى ذوات فقار ولا فقارية ، والثانية الى ذوات الفلقة وذوات الفلقتين . أما التفريق بين الصنات التى يختص بها كل من هذه الاقسام فيرجع فيه الى كتب البيولوجيا التى تعنى بدرس القواعد ، أو علم التاريخ الطبيعى الذى يعنى بوصف العضويات وتحديد مراتبها .

...

(٣) البيئة الاجتماعية

فضلا عن البيئتين الطبيعية والحيوية ، نجد انفسنا محوطين ببيئة أخرى ندعوها البيئة الاجتماعية .

يولد الانسان فى مجموع من الخلائق ، ولهذا المجموع عادات وتقاليد ومعتقدات وشرائع خاصة به ، وهذه الاشياء هى التى تحدد العلاقات القائمة بين الافراد التى تؤلف المجموع . وهذا المجموع نسميه « جماعة أو جمعية » . أما تقرير العادات والتقاليد والعقائد والشرائع ، التى تحدد العلاقات القائمة بين أفراد الجمعية ، فندعوها النظامات الاجتماعية .

وللبيئة الاجتماعية ستة مظاهر سنتكلم في كل منها بايجاز . أما هذه المظاهر فهى : التقليدى أو العادى ، والمدنى أو الاقتصادى ؛ والادبى ؛ ومظهر الجمال ، والمظهر الدينى ، والعلمى .

(ا) المظهر التقليدى أو العادى

البيئة كنظام تقليدى ، فى حقيقتها عبارة عن صور متخالطة من التقاليد والعادات نمت وتطورت بطريقة لا تنبهية أو لا تأملية على مدى القرون والاجيال التى تكونت خلالها السلالات البشرية ، وهى تختلف وتتباين باختلاف الاجيال والامم . وكثير من هذه التقاليد والعادات لا تخرج اليوم عن أنها وراثة انتقلت الينا باللقاح عن حالات الانسان الفطرية الاولى ، فى حين أن بعضها قد نشأ على مدى العصور التى تكون خلالها التاريخ البشرى .

وهذه التقاليد برمتها نتاج ضرورى تقتضيه طبيعة الانسان الاجتماعية وفى استطاعتنا أن ندعوها العادات الاجتماعية ، لانها تنشأ فى الجماعات كما تتأصل العادات فى الفرد ، وتتميز خصائصها من طريق الميول الفطرية التى تنزع بالانسان إلى تكوين الخلق الاجتماعى .

واليك بعض أمثال من هذه التقاليد . فمنها الملابس والكلام ، واللعب والتسلية ونظامات الزواج والعلاقات الجنسية عامة ، وعلى الجملة كل ما يجرى مجرى هذه الاشياء . وكذلك المعتقدات والميل الى الاعتقاد وما يترتب عليه

من النتائج ، انما تلوح كأنها سابحة في الجو الاجتماعي متنقلة من عصر الى عصر في حين أنها ترسل بجذورها القوية الى أعمق أغوار الجمعية الانسانية ، على مدى العصور التى تذهب فيها متطورة من حال الى حال .

وجماع هذه العقائد والميول الاعتقادية تكون ماندعوه « البيئة التقليدية » التى يولد كل منا مكتنفاً بآثارها العديدة ، بحيث يتعذر عليه أن يتخلص من المسؤوليات التى تلقيها على عاتقه ، أو الواجبات التى تلزمه القيام بها قسراً وجبراً « انها تصبح جزء من طبيعة كل فرد . وعادة غير متغيرة من العادات التى يألفها العقل ، أو مجموع ثابت من الميول الذهنية ، ومن طريقها تفسر كل التجاريب الذاتية التى يعانيها الانسان ، وعلى ما يدرك منها تكون أوجه المدح أو الذم »(١)

(ب) المظهر المدنى أو الاقتصادى

اذا تركنا المظهر التقليدى ، وتأملنا في البيئة الاجتماعية ، وجدنا أنها تتطور فى مظهرها الثانى الى نظام خاضع لقواعد أوسنن تضعها الجمعية بمحض اختيارها ابتغاء الوصول الى الغايات العامة .

وفى هذا المظهر تتحدد حقوق الافراد ومصالحها لمنفعة الجمعية ، وكذلك تحدد مسؤولياته تجاه اخوانه فى المجتمع على قواعد موضوعة . ومن هنا يلقن الفرد المبادىء الاوليـة في الحقوق والواجبات ، ليعرف مايملك ومالا يملك ، والى أى حد تذهب حريته فى استخدام « مايملك » من الحقوق ليرضى رغباته الفردية ، وأية من منازع السلوك هو ممنوع عن أن يأتى بها .

ولا ريبة فى أن هذه النظامات تحـدد الى درجة بعيـدة منقلب الفرد فى الاجتماع بأن تقيد حريته فى العمل وأوجـه النفع الذاتى التى يمكن أن تسنح له فرصها . وهذه النظامات ولو أن طبيعتها سلبية ، فانها ضرورية على وجه العموم

(ج) المظهر الادبى

البيئة الاجتماعية ، في مظهرها الثالث ، عبـارة عن تواضع أدبى صرف . فالجمعية تصدر أحكاما ما على صور بعنيها من صور السـلوك والانتهاج ، وتسم

---

١ ـ راجع جروت ـ فى كتابه « أفلاطون وغيره من رفقاء سقراط » ـ ص ٢٤٩ مجلد ١

بعض هذه الصور بأنها « صواب » وبعضها بأنه « خطأ » . وتجيز لأفراد الجمية أن تأتى فعل ما هو « صواب » وأن تمتنع عن فعل ماهو « خطأ »

ولقد تحظر الجمعية على افرارها أن تأتى فعل بعض من صور الخطأ بقوانين وشرائع ونظامات تضعها ، فى حين أنها تستنكر فعل البعض الآخر استنكاراً دليله الاكبر نفور الرأى العام . غير أن صور السلوك التى تحكم الجمعية على أنها « خطأ » تكون على الدوام مستنكرة وفى اتيانها تهمة الاستخفاف بالذوق العام. أما ماتقر الجمعية على أنه صواب ، فيشجع و يمدح . وفي تقدير السلوك تنحصر كل مايعنى بالمظهر الادبى في الوسط الاجتماعى .

(د) مظهر الجمال

كذلك نجد أن حسن الجمال يكون مظهراً آخر من مظاهر البيئة الاجتماعية فان للجمعية الانسانية قدرة على أن تقيم الاشياء من ناحية القبح والجمال . وكما أن بعض صور السلوك قد تقيم بأنها خطأ أو صواب ، كذلك يقضى على أشياء معينة بالحكم بأنها جميلة أو قبيحة . وكما أن الجمعية تحظر فعل ماهو « خطأ » وتبيح فعل ما هو « صواب » وتشجع عليه ، كذلك هى ترغب فى الاشياء الجميلة وتنفر من القبيحة . أما تقيم الجمال والقبح ، فله أثر كبير في تكوين مظهر ذى شأن من مظاهر البيئة الاجتماعية . وهذا مايسمى بمظهر الجمال .

(ه) المظهر الدينى

كذلك نجد أن البيئة الاجتماعية بيئة دينية فى طبيعتها وفى أهم مظاهرها . وليس من السهل أن نعين ماذا نعنى بالدين . كما أنه ليس من الضرورى فى هذا الموطن أن نضع للدين تعريفاً . بل يكفى أن نلاحظ أن الجمية تقدر بعض ضروب من المعتقدات الخاصة فى وجود قوة أو قوات تعتبر فى نظرها مقدسة ، وتحاول أن تخلق لها نزعة من العبادة أو التقديس تستمدها من هذه المعتقدات . وهذه المعتقدات وتلك النزعة التعبيرية ، تكون على الراجح العناصر الاساسية للمظهر الدينى من البيئة التى تكتنف الافراد .

(و) المظهر العلمى

سبق أن عرفنا المظهر التقليدى أو العادى بأنه مجموع معتقدات لا تنبهية أو لا تأملية . وبجانب هذا المظهر يقوم مظهر آخر عقلى فى قوامه ، اقناعى في أساسه ، تكون مع مضى الزمان من تأملات عقلية طويلة أكب عليها العقل البشرى فى هوادة وتريث . وهذه النواتج العملية ندعوها « علماً » أو « آثار علمية » فنفرق بهذا بينها و بين المعتقدات اللاتأملية التى تنشأ عن العادة والتقليد ، أما النظامات التى « تتبلور » فيها هذه النواتج العقلية ، فذلك ما نسميه « العلوم » . وهذا ما نسميه بالمظهر العلمى للبيئة الاجتماعية على أن هذا المظهر قد لعب الدور الاكبر في حياة الانسان على طول الدهور وكر العصور .

فيلوزوف

اللص الاكبر

ليونيداس أوازكى

ليس هو بلص من أولئك اللصوص الذين يروى أخبارهم التاريخ ، فتشك في بعض مايروى أو تناقش في صحة الوقائع. بل هو لص لايزال عائشاً حتى اليوم يأكل عيشه بين جدران السجون ،

والحقيقة اننا لانروى هـذا الخبر لمجرد التسلية ، بل نقصد بنقله أمرين . الاول ان يكون عظة : والثانى أن يكون موضعاً لدرس الذين يحاولون الاكباب على بحث نفسيات المجرمين ،

نقلت أخبار بوخارست فى ٦ يونيه الماضى ان بوليس مدينة كشينيف في بيارابيا قد قبض على ليونيداس أواز كى ، وهو متسول معروف فى المدينة ، كان يدعى بانه مشوه الجسم وانه برجل واحدة ، وانه مصاب بامراض معضلة . فكان يمثل فى مشيه وسؤاله وحياته ، رجل أصابه العرج ونزل به الداء فملأ جسمانه .

على أن هذا الرجل لنبوغه فى تمثيل روايته ، قد قطع على غيره من المتسولين أرزاقهم. ففشى بعضهم سره للبوليس . ومن غريب الأمر ان افشاء السر قد طرأ على الكثيرين من رصفائه فى وقت واحد ، فكان لهذه الحادثة أثرها فى أن يهتم البوليس بأمره. وان يبحث صحة الوقائع التى نسبت اليه. فقبض عليه وأودع السجن .

وكان له منزلان يعيش فيهما . فلما فتشا عثر البوليس على بينات يتضح منها ان ليونيـداس الاعرج الاشوه رئيس عصابة من اللصوص. كانوا يطيعونه طاعة عمياء . وانهم كانوا يسطون على بيوت الاغنياء وعلى تجار الجوهرات . وعرف أيضاً أن ليونيداس لم يكن يشترك بنفسه في أى حادث من حوادث السرقة ، بل كان يرتب عملية السطو بكل دقة ومهارة ؛ لئلا يلفت اليه الانظار و يفتضح أمره.

وظهر ان لليونيداس أربع خزائن استأجرها من أربعة بنوك كبرى فى بوخارست . فلما فتحت السلطات هذه الخزائن وجدت أنها تحوى أموالا طائلة ، فثبت لدى رجال الشرطة ان ماتحوى الخزائن ليس الا قسما ضئيلا من ثروته الكبرى ، لانه عثر في مخابىء أخرى على سندات وأوراق مالية تربو قيمتها على ٦٠٠٠٠ جنيه كان قد سرقها ليونيداس وعصابته .

ولقد وجد بين منهوباته علبة لفافات كتب عليها الآتى « الى حاكم النمسا من الامبراطور ولهلم سنة ١٩٠٥ » .. واسم « ولهلم » مكتوت بالاحجار الكريمة على ظاهر العلبة . اما المجوهرات الاخرى من عقود الماس واللؤلؤ الثمين وأنواع الجواهر الثمينة ، فما يبهر النظر ويطمع فيه أكبر الملوك والامراء .

ولما نخر الشرطة أرض المنزل الذى كان يقطنه ليونيداس ، عثر على خزانتين أخريين ، ملئتا مسروقات أخرى من بلاد أجنبية ، فيها كثير من الاوراق المالية والمجوهرات الثمينة النادرة .

اما ليونيداس أوازكى فارمينى هرب من الاستانة ، حيث كان يشتغل صائغاً ، قبل قيام الحرب العظمى بعدة سنوات ، عندما قامت مذبحة الارمن المعروفة فى عهد السلطان عبد الحميد . ولم يتوطن مدينة كيشينيف الا بعد الحرب بعدة سنوات .

وهو مصاب بداء السل الرئوى ، حتى لقد بعث منظره الرث وسعاله المتواصل الشفقة والرحمة فى قلوب ضحاياه الذين اجتمعوا ليعرفوا مسروقاتهم .

فعلى أية صورة بفهم الحياة أمثال ليونيداس هذا ؟ اننا لانستطيع أن نستخلص فى عالم الحيوان غريزة تعود اليها تلك النزعة التى تقوم في نفس هذا الرجل . فهل لعلماء الطبائع ان يعللوا لنا هذه الظاهرة الغريبة ؟

الجامعه الازهريه

لصاحب الفضيلة الاستاذ صاحب التوقيع

– ١ – عقلية القرون الوسطى – ٢ – حرية الفكر والتعليم الدينى – ٣ – العنصر الجديد فى الازهر — ٤ — الازهر والسياسة — ٥ – الرجعية السياسيه — ٦ — الاصلاح المنشود – ٧ – النتيجة

***

١ — عقلية القرون الوسطى .

لا نظن أن تعريفاً نطمعه لتحديد « عقلية القرون الوسطى » يمكن بأى وجه من لوجوه ، أن يكون مرضياً للكثيرين ممن يعتقدون أن هذه « العقلية » إذا تطورت أو انتابها التغيير بصورة من الصور ، يتهدم ركن الدين ، وينهار قائم اليقين ، ويصبح الناس فوضى لا نظام لهم ولا أخلاق تردعهم عن فعل الشرور والآثام وارتكاب المعصيات ، كأنما هم يعتقدون أن هذا النظام الاجتماعى هو من صنع يدهم ونتيجة من نتائج قوانينهم وشرائعهم التى يتذرعون بأن ينيلوها قسطاً من التأثير النفسانى بأن يردوها الى قوى الغيب ، غير عالمين أن نظامانهم وقوانينهم وشرائعهم انما هي مظهر من مظاهر الاجتماعية ، وتعبير بسيط عما يقوم فى جسم الشكل الاجتماعى من الحاجات التى يتطلبها وجوده ، وانها فى ذاتها عرض لا جوهر ، وأن الاجتماع أصل ، ادراكه على صورة قريبة من الواقع ، موهون على أن نفهم من تلك الشرائع والقوانين والمعتقدات أنها أهم مظاهره ، لا أنها فى ذاتها جوهر ، الاجتماع عرضه ، وانها علة ، نظام الاشياء الانسانية معلولها .

يعتقدون خطأ بأن الشرائع علة فى وجود الحالة الاجتماعية ، فى حين أن عكس هذه النظرية صحيح من كل الوجوه . هم لا يقولون مثلا بأن الشرائع حرمت السرقة لانها مضرة بالاجتماعية ، بل يقولون ، بأن حظر السرقة علة فى وجود الاجتماع . كأنما هم بذلك يحاولون أن يثبتوا أن الحالة الاجتماعية الطبيعية مرهونة على بقاء شرائعهم كما هى ، وأن هذه الشرائع إذا تغيرت أو تطورت ، تهدم ركن الاجتماع ، على معتقدهم .

لهذا وحده يعزى السبب فى جمود عقلية القرون الوسطى وعجزها عن مسايرة الاجتماع الانسانى في ترقيه التدرجى نحو الغايات العليا . ولا جرم أن هذا هو السبب فى الصدام الذى وقع فى القرون الوسطى بين الكنائس وأهل العلم ؛ ويعزوه بعض الناس خطأ الى نزعة الدين نفسه ، وما ذلك من نزعة الدين في كثير ولا قليل .

هذه العقلية ، اذا أردنا أن نعرفها تعريفاً دقيقاً ، لم تصبح فى نظرنا أكثر من انها الصورة الذهنية التى تتركز حول مجموعة من المزاعم المنقولة أو الشرائع التى يدعى بأنها منزلة ، وحول تفسيراتها التى يفسرها بها أئمة الدين ورؤساؤه ، فتؤخذ على أنها ثابتة لامبدل لها ، فتقضى على الطريقة العقلية التى تحاول أن تصفى هذه المنقولات الاخبارية من أثر الوهم والاساطير .

هذه العقلية بذاتها هي العقلية التى قامت عليها الجامعة الازهرية ، وعليها تقوم الى الآن . ولقد كان لهذه العقلية آثارها البعيدة في مشاعر الناس وتصوراتهم على مدى العصور والاجيال . فهى التى صدت تيار التقدم الانسانى وهى التى عاقبت « العقل » على نزعاته الحرة ، وهي التى ادعت خلال العصور أنها السنة التى سنها الله لخلقه في الارض ، وانها الكفيلة بالخلاص الاخروى ، وأنها تملك الدينونة الصغرى ، وأن الله يملك الدينونة الكبرى .

ولقد تربع على عرش هذه العقلية ملوك وأمراء ، حفت بهم هيئات مختلفة من رجال الدين . استمدوا سلطتهم من نبع واحد وناءوا بعقليتهم هذه على الجماهير يقتلون فيها حب البحث والحرية تخليصاً لهم فى أخراهم بأن يهدوهم في دنياهم ، في حين أن تاريخ هذه الفئات ، التى اعتقد خطأ بأنها ظلال الله فوق الارض ، لم يدل يوما الا على أنهم أشد الناس اسفافاً فى النزعات وانهم أكثر خلق الله طماعية وتهالكا على الحطام . فكأنهم بذلك لم يبتغوا نفع الانسان ولا نفع الانسانية ، بل رموا الى ترهيب الناس وترغيبهم ليستكينوا لاحكامهم خاضعين لترهاتهم ، ليفوزوا هم من طريق هذا الخضوع بالتمتع بالسلطة وحيازة الدنيويات ،

ألم تر كيف سورت قصور العظماء والامراء ورؤساء الدين بأسوار من الاحجار

الصلدة والحديد ، وقد ملئت جوانبها بالسراري وما ملكت الايمان من الاماء والعبيد ، وهنالك قامت المفاسق العامة تحت ستار الدين ، وتحت عنوان أن هؤلاء هم ظلال الله فوق الارض ، تعالى الله عما يفترون علواً كبيراً ؟

ألم تر كيف أن رؤساء الدين والامراء الذين رضوا من الدنيا بالوهم الذى كان يبثه في روعهم هؤلاء ، قد عمدوا الى الدين يستغلون به القربانات . و بيع الغفرانات في القرون الوسطى ، حتى فرغ ما في جيوب الناس وملئت خزائن معاهد الدين بالمال تقام به المذابح دساً وخديعة ، وتبنى به المحارق لتلتهم نيرانها أبر من أنجبت الانسانية من أبنائها بالانسانية ؟

ولئن كانت معاهد الدين قد فقدت اليوم السلطة الدنيوية فان العقلية التى كانت مفاتن السلطة الدنيوية عنواناً عليها ، لا تزال باقية حتى اليوم بفؤوسها ومعاولها . ولو أفسح لها اليوم المجال لرجعت سيرتها الاولى تحت ستار آخر يناسب مقتضى الزمان والمكان . هذه العقلية هى التى يجب أن نعمل على الغائها وقتلها اذا أردنا للجامعة الازهرية اصلاحا صحيحاً قائماً على ماتتطلب المصالح الانسانية من حاجات في العصر الحديث .

* * *

٢ — حرية الفكر والتعليم الدينى

قرأت منذ زمن قريب محاضرة ألقاها أحد أصحاب الفضيلة عنوانها « القرآن وحرية الفكر » وكنت أود من صميم قلبى أن يكون ماقال صاحب الفضيلة صحيح ، وأن لا ينصرف هذا الفرض على القرآن وحده ، بل ينصرف على كل الكتب السماوية . يقول صاحب الفضيلة هذا القول فى حين أن كلمة « الدين » وحدها ، وهي التى تعتبر على المعنى المستمد من الكتب السماوية ، لاتتفق وحرية الفكر بحال من الاحوال . ذلك لأن الدين في مظهره الخارجى « تسليم » وفى مظهره الباطنى تأثير مما « فوق العقلية » تخضع له المشاعر .

هذا هو التحديد الصحيح لما نعنى بالدين، ولما نعنى بالكتب المقدسة . اذن لايجب علينا أن نخلط هذا الخلط الفاحش في تحديد المدركات . فقد كان هذا

الخلط سبباً في أن يقوم بين فئات كثيرة مسائل خلافية ما أنتجت الا أسوأ النتائج للدين وغير الدين .

ان أول أثر يترتب على الاخذ بالطريقة العقلية في التفكير هو الصراع بين العقائد و بين المعقولات . لهذا يجب أن نفصل فصلا تاماً بين حرية الفكر والتعليم الديني . فالتعليم الديني يجب أن يقوم على القواعد الاساسية التي وضعت في فلسفة الاديان مع تصفية البرامج من الاشياء التي ثبت علميا بأنها غير صحيحة . فالدين والتعليم الديني يجب أن يلجآ الى التأمل ، وأن يخضعا إلى حاجات اليقين ، قبل أن يخضعا إلى حاجات العقل ، على أن يكونا في خضوعهما هذان مسايران لمقتضى الحالات الاولية التي تتطلبها سعادة المجتمع .

لهذا لا نقول مطلقاً بأن الدين يجب أن يخضع لحرية الفكر . كما نقول بأن حرية الفكر لا يجب أن تخضع مطلقاً للدين . وما نقصد الى شيء الا أن نخلق حالة عقلية تبرر وجود الدين وتبرر وجود الحرية الفكرية ، باعتبارهما من الاشياء التي يحتاج اليها المجتمع ذهنياً ، حاجته الى الغذاء والكساء طبيعياً .

نريد أن يقوم بين الطرفين « تفاهم » يبرر به وجود كليهما على قاعدة أن تحرير الفكر لا يترتب عليه الغاء الدين ، ولا أن التعليم الديني يترتب عليه الغاء العقول . فانا اذا استطعنا أن نغرس هذه الفكرة في الجامعة الازهرية ، نكون قد بلغنا في جيل واحد ما بلغته أوروبا في قرون .

***

٣ — العنصر الجديد في الازهر

في الازهر عنصر جديد هو نجم يلمع في دياجير هذه الجامعة الكبرى . وكما يعبر الاوروبيون لدى قيام مايدل على وقوع حوادث جديدة بقولهم « ان في الشرق نجما جديدا » نقول بأن في سماء الازهر ضوء يلمع . وشعاعاً يرسل بخيوطه المضيئة الى أغوار العقلية التي قام عليها الازهر منذ أبعد أزمانه .

يتكون هذا العنصر الجديد من بضعة أفراد لايزالون يعدون على أصابع اليدين ، عرفوا ما تقوم عليه الجامعة الازهرية من المناقص فحاولوا أن يصلحوا ، لا باليد

ولا بالقوة ، ولكن باللسان فقط ، فأبعدتهم العقلية القديمة عن الادارة ، ونفتهم الى مقاعد التدريس لا يمكن أن ينتفعوا بها ولا أن ينتفع بهم الطلبة فيها الذين يحضرون عليهم ، وبذلك مثل رجال الادارة فى الازهر الرواية القديمة التى كانت تمثل فى القرون الوسطى على صورة تلائم مقتضى الزمان والمكان .

ولنا فى الماضى القريب عظة . فان الاستاذ محمد عبده لولم يتربع على عرش الازهر ، وعلماء الازهر راغمين ، لما قامت من حوله تلك الضجة الكبرى ، ولنفى كما ينفى اليوم أترابه من علماء الازهر ، الى معهد من المعاهد التى لا يمكن أن يسمع له فيها صوت ، أو يكون للأحجار التى تبنى بها جدرانه صوت يتردد . ولماذا نذهب بعيداً ، ألم يكفر محمد عبده فى نظر الازهر ؟ ألم يقم له علماء الازهر دينونة صغرى ، فحكموا عليه بالتجديف ، وعينوا له المنزلة التى ينزلها من منازل جهنم ، فقال بعضهم انها سقر ، وقال البعض انها الباب السابع فى الجحيم ؟

هذا العنصر الجديد ، الذى بدأ محمد عبده بوضع العقلية التى قام عليها ، هو العنصر الوحيد الذى يجب أن يكون له اليد الطولى فى نظام الازهر . ومن التحكم فى ادارته ووضع برامجه . وما هذا العنصر على وجه التحديد الا أولئك الافراد الذين يجلون الدين باعتباره شيئاً محصوراً فى النفس ، ويجلون العقل باعتباره مبدأ تحتاج اليه الحياة الانسانية . هم لا يلغون العقل ، ولا ينزلون الدين عن منزلته الحقيقية ، فبذلك جمعوا بين حاجات الدنيا والآخرة . هم النجم الجديد اللامع فى سماء الازهر ، وهم لدى الواقع نواة الاصلاح . هم أشبه الناس من حيث حرية الفكر والاستمساك بقواعد الدين ، بذلك الرجل الانجليزى الكبير والفيلسوف المعروف الاسقف « انج » الذى يقول على الرغم من تدينه الشديد :

« يوجد ثلاث صور تتشكل فيها الافكار ، كما تتشكل المواد الكيماوية ، وهي الجمادية والسائلية والغازية . أما الصورة الاخيرة فمظهرها الخطابيات والمناقشات الخلافية . والثانية مظهرها الكتب . والثالثة مظهرها أساتذة « العلم » الذين يعرفون كيف يقدسون العقل قبل كل شىء فى هذا الوجود »

***

٤ — الازهر والسياسة .

ولست أدرى كيف أن معهداً كبيراً كالجامعة الأزهريه ، يجب فى أول مايجب عليـه انه ينصرف عن كل مايخرج عن أفق الدين والعلم ، يكون نواة للحركات الرجعية فى السياسة ، ويكون عاملا من العوامل التى تمتد الى صاحب كل نفوذ مصريا أو أجنبياً ، ثم يمكن أن ينكر منكر أن آثار العقلية القديمة لاتزال قائمة فى رءوس أهله .

لقد حررت النزعات الحديثة معاهد العلم عن السياسة . فلست تجد اليوم معهداً من المعاهد العليا له بالسياسة أقل احتكاك، أو يكون احتكاكه بها دليلا ساطعاً عند أهل العلم بانه خرج عن وظيفته الطبيعية التى أسس من أجلها . وعلى الضد من هذا نجد الازهر ، فاذا قويت يد السلطة الشرعية في البلاد كان الازهر أول من يمد لها يداً . وان انتعش حزب من الاحزاب كان الازهر سنادته وعماده ، واذا تحركت السلطة الفعلية لتفتأت على حقوق البلاد ، كان الازهر أول من يدعى بان مصر أقل البلاد حقاً فى حكم نفسها. ولانعنى بالازهر لدى الواقع الا رؤوسه وذوو النفوذ فيه . ولا جرم أن لهؤلاء من السلطة في الازهر مايجعل كل سلطة بعدهم هباء او فناء . فهم الازهر والازهرهم .

هم الذين مدوا يدهم لنابليون بونابرت بعد أن اتخذ من الازهر مربطاً لخيله فكانوا عونه على مصر ، وهم الذين تربعوا فى مجالس الحكم ينفذون ارادة الغاصب ، بينما كان سوقة المصريين يمعنون فى الفرنسويين تقتيلا ، ويمعن فيهم بونابرت ذبحاً وتفظيعاً .

هم الذين نصروا سعد باشا رحمه الله ، فاذا جرى عليهم الاصفر الرنان من خزائن حكومة غير حكومة سعد ، نسى سعد ونسى الوفد ونسيت مصر ، ونسيت الوطنية وطفئت حرارة الحماس للاستقلال ، ولا آله الا وزارة المالية ، وما شاء الوزير كان .

وكم تنقل الازهر من مصاف الوطنيين الى مصاف العقلاء، وكم أخـذ بيد السلطة الشرعية ينصرها. فاذا مدت له السلطة الفعلية يداً ، أنكر شرعية أهل الحكم

وراح يناوئها لينال « غفران » أهل القوة . ولم نسى أن الدين يأمر بالبر والتقوى ، ولم ينس أبداً « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » ، على انهم نسوا الله والرسول وأطاعوا أولى الامر ، مع تفسير أولى الامر بحسب الاهواء والاغراض .

لاجرم ان هذه حالات لاتخلقها الا عقلية عكفت على الاساليب التى الفها العقل فى القرون الوسطى . عقلية لاتعرف الدنيا الا بقدر مافيها من متعة ، ولا تعرف الدين الا بقدر ما يكون وسيلة لخدمة الدنيا . ولا شبهة عندى أن في الغاء هذه العقلية ينحصر كل الاصلاح المنشود ، فلنلغ عقلية الازهر ، ولنلغ الاساليب التى تجرى عليها طرق التعليم لنفوز بجامعة أزهرية جديرة بالتقاليد التى يجب أن تكون لمصر فى عصرها الجديد

***

٥ ـ تحليل السبب فى الرجعية السياسية .

اذا أردنا أن نحلل السبب في هذه الرجعية السياسية التى يمثلها الازهر الشريف ، فانا لانحتاج الى شرح أو بيان فى اثبات انها موجودة بالفعل وأن أثرها ملموس . واليك دليل واحد :

يتهم الناس حزب الاحرار الدستوريين بانه حزب اللادينية ، ويعرفون فوق هذا ان اسماعيل صدقى باشا من أساطين هذا الحزب . فلما مد اليهم يده بتحسين أحوالهم المعاشية من مرتبات ومكافآت وغيرها ، أصبح صدقى باشا ، ممثل الاحرار الدستوريين ، ناصر الدينية على اللادينية ، وما شاء الله كان . وبهذا قال الازهر والازهريون ، وبهذا أثبتوا نزعاتهم الرجعية فى سياسة البلاد ، على انهم عنصر لايستهان بقوته ، ولا ينكر في السياسة أثره .

اما تحليل السبب فى هذه الرجعية فمحصله أن عقلية القرون الوسطى بما فيها من ضعف التأليف بين المثل العليا فى الحياة ، لاتمكن الآخذين بها من الحكم على حقائق الاشياء حكما بعيداً عن الاغراض الذاتية .

***

٦ ـ الإصلاح المنشود ـ النتيجة .

ينحصر الكلام في الاصلاح المنشود على شيء واحد هو :

« العمل على تحرير العقول من أثر العقلية القديمة . وليس معنى هذا أن تغير البرامج فقط ، بل يجب أن تتغير أساليب الدرس والتفكير أيضا » .

اما النتيجة فتنحصر في :

« ان الازهر سيظل عاملا رجعياً في الدين والسياسة والعلم مادام بعقليته الحاضرة . فاذا أمكن القضاء على هذه العقلية ، نكون قد أصلحنا الازهر وخلقنا منه جامعة جديدة جديرة بما نتطلع اليه من مثل عليا في الحياة »

أزهرى حر الفكر



النقد والتأليف

تاريخ سوريا ولبنان

رد على رد

١ — رأيتم أن لا فائدة من تصدير الكتاب بتاريخ سوريا ولبنان قبل الاسلام بمثل هذا الجفاف والقحط . وقد يكون لكم فى ذلك بعض الحق لو كان الكتاب للمتأدبين لا للتلامذة . ولو كان مؤلفه غير مقيد ببرنامج وزارة المعارف اللبنانية

٢ — أما اعتراضكم على ما جاء في الكتاب من غلو وذلك فى ما يتعلق بتاريخ العرب . فأظنه فى غير محله . وتساؤلكم عن التجارة العربية . وحماة التجارة من العرب أين هم ؟ . وذلك في ما هو أقرب الى النكران منه الى التأييد خطأ عظيم . لان مثل هذه الاخبار قد أيدتها كل المصادر . و إني لأعجب كيف تجهلون مثل هذه المعلومات الضرورية لمعالجة النقد التاريخى فى الصحف والمجلات العربية .

٣ — جاء فى التاريخ العام الذى تصدره شركة دائرة المعارف الانكليزية فى ٢٧ مجلد . فى المجلد الثالث والصفحة ١٠٨ ما يأتى :

وكان للقريشيين فى مكة مورد ثروة لايستهان به بما كانوا يرسلونه صحبة القوافل الى شواطىء البحر الاحمر وما يصدرونه عنها . وكانت جدة منذ القديم مركزاً تجارياً عظيما . ومكة التى كانت تبعد قليلا عنها مركزاً عاماً للتجارة العربية . وقد عظم خطر هذين المركزين جدة ومكة بما أظهروه تجار قريش من البراعة والذكاء فى تجارتهم .

وليس هناك ريب في خبر القواقل التى كانت مكة ترسلها الى دمشق والعراق . »

وليقرأ حضرته فى الصفحة ٣٠٥ من المجلد نفسه أسماء الاشخاص الذي

اعتمدت عليهم شركة دائرة المعارف البريطانية . وتاريخ العالم في ابحاثها هذه .

٣ — ولقد سقطت كلمة (فحسب) بعد ولم يكن العرب تجاراً . وذلك في الصفحة ٢٩ من الكتاب الاول . وما قبلها يؤيدها وهذه هي الجملة كاملة . « وكانت الجزيرة العربية تعتمد في قوامها الاقتصادى على التجارة. والثمرات القليلة الضئيلة التي تنبت في أرضها . وكان جل اعتماد أهلها على التجارة اذ كان البروسيلة صالحة للنقل . ولم يكن العرب تجارا فحسب. ولكنهم كانوا حماة للتجارة التي تمر بأرضهم)

٤ — ويقول موير في كتابه (تاريخ محمد) صفحة XCI—XC—IXXIX وذلك في مقدمة كتابه الضخم . ومع أن جزيرة العرب كانت منذ قرون عديدة بعيدة عن الانظار . فاننا نعرف أن تجارة عظيمة كانت زاهرة في كل وقت في هذه البلاد . وهي التي جعلت العرب حملة التجارة العالمية بين الشرق والغرب)

وليقرأ حضرته هذه الصفحات في مظانها . فيعلم عن خبر هذه التجارة الشيء الكثير ...

٥ — وهناك في دائرة المعارف الانكليزى مايؤيد هذا الخبر الذى استفاض خطره فأصبح حادثاً « واقعاً » لا سبيل الى الشك فيه وانكاره ،ولسنا نريد أن نبحث الاخبار العربية وغير العربية لنذكر علاقات فارس والروم مع العرب ، وما كان للاعراب من مركز منيع في عهدهم ، وما كان للمناورة والقساسة من شأن في السياسة الحكومية في فارس والروم. فان هذه أمور يعرفها طلاب المدارس وهذا يدل دلالة واضحة على أن هذه الشراذم العبرية كان لها شأن في الجزيرة وغير الجزيرة قبل أن دفعها الاسلام. لحق الدولتين العظيمتين فارس والروم .

٦ — وجاء في كتاب التاريخ العام الذى وضعه الكاتب الانكليزى المعروف وليس في الصفحة ٤١٠ ــ ٤١١ ما يأتي

« كان العرب يأخذون الجزية لحماية القوافل التي تمر بأرضهم . ولقد قامت بعض المدن العربية على الطرق التجارية . مثل مكة والمدينة . ولم تكن مكة

مركزاً تجارياً فحسب وانما كانت أيضاً مقراً للحاج والعبادة »

***

٧ — أما الجزية التى فرضها تيمورلنك على دمشق فقد جاء عنها ما يأتى :

١ — تاريخ سوريا ولبنان لليسوعيين صفحة ٧٦ « بيروت المطبعة اليسوعية »

فرض تيمورلنك على دمشق جزية قدرها عشرة ملايين .... ولما فتحت دمشق أبوابها أخذ التتر ينهبونها بيتاً بيتاً

٢ — تاريخ سوريا (بالافرنسية) الأب لامانس . بيروت — مطبعة اليسوعيين

وطلب تيمورلنك جزية قدرها مليون دينار من دمشق

وقول لامانس أوثق وأصدق . وهو ما اعتمدنا عليه . فهل لحضرة الناقد أن يأتينا بما ينقض هذا الخبر

٨ — أما اعتراضكم على ما نقلناه (للسائح الالمانى) فقد يكون جديراً بالعناية لو استطعنا الى بحثه ونقده سبيلا . ولما كان ذلك مستحيلا لندورة مثل هذه الاخبار . وعدم انصراف أحد من أبناء سوريا لمعالجتها . فقد نشرنا أقوال هذا السائح لوحدها دون أن تكون ذات علاقة بالدروس التى تلقى على التلامذة ليقرأها من أراد فيجد فيها مايساعده على تعرف الزمن وحالته الاقتصادية . وفيها على كل حال أخبار تاريخية مهمه

٩ — أما ما نشرناه عن وزن الجارية وغير ذلك أيام عثمان . وذلك نقلا عن كتاب (الامامة والسياسة) فقد يكون فيه بعض المبالغة وذلك لايمنع توفر المال فى ذلك الزمن بعد ما درته فتوح فارس والروم على المسلمين من الغنائم الوفيرة والاموال العظيمة .

١٠ — أما مقدار الجزية التى كان يدفعها عبد الملك بن مروان الى الروم فقد ذكرها العرب كما ذكرتها في كتابى صفحة ١٢٨ وأشارت اليها المصادر الاروبية دون ما تعيين الى المبلغ . وقد فعلت ذلك فى الصفحة ٥٣ من الكتاب نفسه

١١ — أما عدد الجيش العثماني في الحرب العامة. فكان اكثر من مليون جندى. وهذه حقيقة لا سبيل الى انكارها وعدد سكان الدولة العثمانية في ذلك العهد و يبلغون ٣٠ مليوناً يؤيد ذلك

أما عدد القتلى والجرحى من السوريين فنقره ونؤيده كما أوردناه حتى يأتينا حضرة الناقد بأوثق منه . أما ما لم نذكره عن أعمال الاميركيين النافعة فى البلاد، فقد أتينا على أعمالهم . العلمية وسنبحث أعمالهم المالية فى الكتاب المطول . وأما تساؤله عن الاسباب التى حملتنى على تجاهل ذلك فأمر يعنينى دون سواى .

١٢ — وهناك بعض نقط لا أهمية لنقدها أو تفنيدها . وكنا نود لو أن حضرة الناقد كان أوثق أخباراً وأكثر روية وأعلم باخبار سوريا ولبنان ليكون نقده أبقى أثراً وأكثر فائدة .

*
* *

تعليق على الرد السابق

١ — نأسف لعدم وقوفنا على أن برنامج وزارة المعارف اللبنانية . قد قيدت المؤلف « بمثل هذا الجفاف والقحط » ولكننا لا نسلم مع حضرته بان كتابة هذا « الجفاف والقحط » للتلامذة . وليس للمتأدبين فيه فائدة لهم . وهم محتاجون لتبسط أكثر خصوصاً وانهم مبتدئون

٢ — تساؤلنا عن التجارة العربية أين هى . هو بالضبط مثل تساؤلكم ص ٣٩ « ولم يكن العرب تجارا ولكنهم كانوا حماة تجاره » وأظن السيد المحترم يسلم معى أو يسمح لى أن أسلم معه بصحة ماورد في الصفحة ٢٩ ج ١ . من كتابه « كانت الجزيرة العربية تعتمد فى قوامها الاقتصادى على التجارة (والثمرات القليلة الضئيلة التى تنبت فى أرضها) وكان جل اعتماد « فما الذى كان يحمله العرب اذا كانت حاصلات بلادهم الزراعية تكاد تكون معدومة « أظن سيادته لا يريد أن يقول بان الصناعة العربية كانت ناجحة وأن النقدين كان معروفاً من العرب . فاستثمروه . فهل كنت مخطئا في قولى إذن أيها السيد ؟

٣ — وانما تعرضت لهذا القول عرضا . لان قصدى كان اظهار التناقض. فتفضل وقل لى ما الذي كانت تحمله تلك القوافل غير التمر والشعير الى دمشق . وما الذى كان ينتظر أن ترده دمشق الى قوم حفاة عراة الأشياء حقيرة ؟ وأحب أن لايكون حضرة المناظر نقلا بلا تفكير . فعلى فرض ان كتب الاولين والآخرين حوت ما ليس يقبله العقل ، فهل يقيد الانسان عقله فى سبيل الاستشهاد بفلان وفلان ؟ وانى آسف غاية الأسف لعدم وجود كتاب التاريخ العام تحت يدى الآن ، ولا كتاب موير ولا أى من الكتب التى تفضل بذكرها، ولم أسع لاحضارها لأن النبذات التى أتى بها حضرته على فرض أنها منقولة حقا من تلك المصادر لايستسيغها العقل للأسباب التى ذكرتها من قبل ، فهى غير صحيحة

٤ — وهناك فرق — ولو فى نظرى أنا فقط — بين القول بان العرب كانوا حملة تجارة (يسوقون الجمال) و بين القول بأنهم كانوا حماتها . وكذلك هناك فرق بين القول بأنهم كانوا يحمون تجارة (الأمم التى كانت تحيط بهم) أليس كذلك؟ والمعقول أنهم كانوا يحمون تجارة اليمن — سوريا لان مرور القوافل فى مواطنهم كان يحتاج الى هذه الحماية ولكن أكثر من هذا فلا

٥ — وما الذى كان المناذرة والغساسنة من شأن في السياسة الحكومية في فارس والروم ؟ أليس هذا التعميم غير جدير بصفات المؤرخ ؟ ان من يقرؤك يا صديقى لا شك يعتقد بان المناذرة والغساسنة كانوا يلعبون فى الدولتين الدور الذى لعبه الاعاجم فى سياسة الحكومة العباسية . لا.لا. أرجوك أن تقلل من حماسك وأنت تكتب التاريخ لانه اذا كان كل مدرسى المدارس على شاكلتك وأصبح « طلاب المدارس » يعرفون هذه الامور فليس أمامى إلا التألم العميق والسكوت على مضض • كلا ياسيدى فطلاب المدارس وأنا فى جملتهم لا نسلم بصحة ماتقوله أبدا

٦ — وانى أشكر مناظرى الفاضل اختياره نشر أخف الضررين . فالحمد لله على أنه لم يعتمد على تاريخ اليسوعيين فى ذكر الجزية التى أخذها تيمورلنك واكتفى بمليون دينار وانى لو كنت مكانك لقلت « فرض تيمورلنك على دمشق

جزية ثقيلة .. ولما فتحت أبوابها أخذ التترينهبونها بيتاً بيتاً » وأظن فى ذلك الكفاية.لان نصف مليون جنيه مبلغ ضجت منه مصر فى القرن العشرين عند مادفعته،بعد مقتل السردار

٧ — ليتك عينت ثمن الجارية بمائة الف درهم فكان ذلك أخف وطأة من قولك أنها كانت تباع بوزنها . ياحفيظ • ياحفيظ

٨ — بخصوص عدد الجيش العثمانى اسمح لى أن أقول بأننى وافقتك بقولى « انى لا أتصور أنه زاد عن ١٠٠٠٠٠٠ جندى كثيرا » فاذن نحن متفقان ولكنك قلت أن « عدد سكان الدولة العثمانية ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ »اواستنتجت أنه لايستبعد تجريد تلك القوةوهذا ما لم اتعرض له أبدا. بل الذى تعرضت له هو كيف يمكن لسوريا أن تقدم جيشاً عدده ٢٤٠٫٠٠٠ كلهم بين ١٨و٤٥ فى حين أن تعدادها ما كان يتعدى ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس . ذلك خلاف الذين رشوا الرؤساء للتخلص من الخدمة ،وخلاف (الفراريين)وخلاف موظفى الحكومة الذين حشروا حشرا فى دواوينها وخلاف الذين انتموا الى المدارس ٠٠٠؟

٩ — أأسف جدا لأنى لم أعمل احصائية للقتلى والجرحى من السوريين وأعجب كيف تقرون العدد ١٢٠٠٠٠ نفس ؟ يجوز أنهم كانوا أقل أو أكثر أليس كذلك ؟

١٠ — انى لم اتساءل عما تذكروه عن أعمال الاميركيين النافعة فى البلاد بل الذى سألت عنه هوالسبب فى تخصيصكم بالذكر ما أنفقه الفرنسيون وتقدرونه بسبعة ملايين فرنكا . وذلك في إطعام الجياع وتموين لبنان وانشاء مخازن للاعاشة، فى حين انك تعلم مثلما أعلم أنا أيضا بأن الامريكيين انفقوا بدلا من الفرنك الواحد جنيها ذهباً أو بالاقل دولارا فى هذه الاوجه ليس بعد الحرب فقط بل وخلال مدة الحرب . ومع ذلك لم يحظوا بوضع اسمهم مع غيرهم من المحسنين ولو فى ذيل القائمة . وأنا اعترف بكل خضوع أن الدافع لك على ذلك هو من شئونك الخاصة؛ ولكن أليس للقارىء أن يتساءل عن السبب ولو في السر ؟ (ياموئشير أنت مؤرخ ولست صحافيا تشتغل فى نشر الدعوة) •

أظنك عرفت انى أوثق اخبارا مما حسبت واكثر روية . وأما كونى أعلم باخبار سوريا ولبنان فأمر أتركه لك بعد أن تقرأ

عمر عنايت

*
* *

(العصور) اجتمع لدينا نخبة من المؤلفات منها السفور والحجاب للآنسة زين الدين .والنكبات للريحانى. وقبض الريح للمازنى ونسمات وزوابع وغير ذلك من المطبوعات الحديثة . سنوالى نقدها وغيرها تباعاً بعد أن ندرسها على الطريقة التى جرت عليها العصور حتى الآن وموعدنا بذلك الاجزاء التالية



حنين بن اسحاق

حياته وأعماله

عن بحث للدكتور مكس مايرهوف

لم يكتب حتى الآن بأية لغة أوروبية ترجمة وافية لحياة حنين الذى يدعوه ليكلرك بأنه « مثال فريد فى التاريخ للذكاء النادر والاخلاق الجميلة ، بل من أعظم شخصيات القرن التاسع الميلادى »

أما فى اللغة العربية فقد أفرد له ابن أبى اصيبعة فصلا مسهبا ضمنه تاريخ حياته وما ترجمه أو ألفه من كتب ورسائل : وهذا الذى كتبه ابن أبى اصيبعة قد اتخذه كتاب العرب والفرنجة مادة يصيغون منها صوراً غير كاملة لحياة حنين . على أن ابن أبى اصيبعة انما اختزل مقالة ابن القفطى على ما بها من نقص ظاهر . هذا وفى كتاب الفهرست لابن النديم ترجمة قصيرة ناقصة نقصاً كبيراً وكذلك سائر التراجم العربية التى بين أيدينا فانها بعيدة كل البعد عن ان تفى بالمرام . ولست تجد فى جميع اللغات الاوروبية سوى مقالات كثيرة لا تتناسب ومكانة حنين كرجل من رجال العلم . ومن المرغوب فيه ترجمة الفصل الذى عقده ابن أبى اصيبعة عن حنين بن اسحق إلى لغة أوروبية مع ملاحظات انتقادية تصحح أخطاءها وتكمل ما بها من نقص .

ولد أبو زيد حنين بن اسحاق العبادى سنة ١٩٤ ه فى الحيرة (العراق) من أب نسطورى نصرانى كان يشتغل بالصيدلة . ودرس الطب بادىء الامر فى أكاديمية الطب المشهورة في جنديسابور (بخورستان) من أعمال فارس . وكانت معهداً أنشأه سابور الثانى أحد ملوك بنى ساسان فى أوائل القرن الرابع الميلادى . وكان أستاذ حنين فى هذا المعهد هو يحيى بن ماسويه الطبيب النصرانى المشهور ولكن حنينا كره من أستاذه ماجبل عليه من غطرسة وكبرياء فترك المعهد ثم أمضى في مكان مجهول سنوات عدة حذق فيها اللغة اليونانية . ولما أن تهيأ له

ذلك يمم ناحية البصرة (العراق) وكانت في ذلك العهد أكبر معهد لعلوم اللغة العربية ، وملتقى أقطابها يقصدها الطلاب من كل حدب ليحذقوا العربية ويتفقهوا فيها. وبذلك أصبح حنين يجيد لغات أربع هي : الفارسية ، واليونانية ، والعربية ، والسريانية التي هي لغته الاصلية . ولما شخص الى بغداد حوالى سنة ٢١١ ﻫ على الارجح دخل فى خدمة جبرائيل بن بختيشوع (المتوفى سنة ٢١٤ ﻫ) أشهر أفراد عائلة بختيشوع التي كان أفرادها أطباء البلاط والتي أصابت عند الخلفاء حظوة وقبولا . وكان هو نفسه طبيب المأمون الخاص (١٩٨ — ٢١٨ ﻫ) . ومعروف أن هذا الخليفة العباسي مشجع أعمال الترجمة التي كان يقوم بها علماء عصره من الكتب اليونانية الطبية والعلمية الى السريانية والعربية وقد ترجم حنين الى السريانية لبختيشوع وهو فى السابعة عشرة من عمره كتاب جالينوس «في أصناف الحميات» ثم كتابه « فى القوى الطبيعية » . لكن حنينا نفسه لم يرض عن ترجمة هذين الكتابين ولا عن ترجمة كتب أخرى انجزها في صباه فصححها جميعاً بل ترجم بعضها من جديد فيما بعد . لكن جبرائيل اغتبط بذكاء فتاه وكفايته اللغوية وامتدحه عند الخليفة الذى عينه عميداً لبيت الحكمة الذى أنشىء سنة ٢١٥ ﻫ ، واختزنت فيه جميع المخطوطات اليونانية التي جمعها المأمون من أماكن كثيرة فى أمبراطوريته الشاسعة ومن آسيا الصغرى التي كانت لاتزال ترفرف عليها راية الدولة البيزنطية ومن الاستانة . واستخدم فيها رهطاً من شباب المترجمين لنقل الكتب اليونانية الى السريانية أولا ثم الى العربية ثانيا . وفى أثناء ذلك توفى جبرائيل وأصبح ابنه بختيشوع (المتوفى عام ٢٥٧ ﻫ) صديق حنين ووليه الذى يحبوه برعايته . ولقي حنين فوق ذلك من يوحنا ابن ماسويه أستاذه السابق وسلمويه بن بنان منافسه العلمي (توفي عام ٢٢٥ ﻫ) خير عطف وعناية . وقد ذكر حنين نفسه كيف شارك الاخير فى بعض غزوات المأمون ضد الدولة البيزنطية . ولما مات المأمون عقب ذلك بقليل عين سلمويه رئيسا لأطباء المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ ﻫ) الذى خلف المأمون وأصاب عنده مكانة وحظوة . ومما لاريب فيه ان حنينا ظفر منه بصديق قوي استظل بحمايته ، وترجم له خاصة ثلاثة عشر كتابا

من أهم كتب جالينوس . وأصاب مثل هذه الحظوة عند الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ ﻫ) الذى كان يعظم العلماء ويتمشق محادثتهم . وكان حنين خلال ذلك قد ترجم قدرا هائلا من كتب جالينوس وغيرها من الكتب الطبية والفلسفية عن اليونانية . ولقد قام حنين برحلات طويلة جاب فيها أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر (الاسكندرية) سعيا وراء الحصول على المخطوطات العلمية اليونانية . الا اننا لانعرف بالضبط فى أى وقت قام بهذه الرحلات . وكان الخليفة وكبار رجال البلاط يدفعون نفقات هذه الرحلات وأثمان الكتب النادرة . وغنى عن البيان أن كبار رجال البلاط كانوا هم أنفسهم من جلة العلماء المبرزين فى حلبة المعرفة أمثال بنى موسى ابن شاكر منجم المأمون . وكانوا ثلاثة نخص منهم بالذكر محمد واحمد اللذين كانا من مشاهير الرياضين واللذين قدما بالاضافة الى حنين بن اسحق ثابت ابن قره الحرانى الطبيب الصابئ والفلكي العظيم الى الخليفة . وقد قال ابن أبي أصيبعة . ان بنى موسى بن شاكر كانوا ينفقون خمسمائة دينار (١٠٠٠ دولار تقريبا) كل شهر على أعمال الترجمة ويرى حنين نفسه ان ترجمته تحسنت كثيراً بعد أن بلغ سن الثلاثين . ومن المحتمل ان حبيشا ابن أخت حنين اشترك في أعمال الترجمة بعد ذلك بقليل مع خاله الذى أصبح بفضل حدبه عليه أحد مشاهير المترجمين .

وفى أيام الخليفة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ ﻫ) بلغ حنين قمة مجده كمترجم ومتطبب . لكنه خلال نفس هذا الوقت نكب بمحن جرها سوء ظن المتوكل به وحسد زملائه النصارى له . وأول هذه المحن ما رواه ابن أبي اصيبعة من ان المتوكل لما قوى أمر حنين وانتشر ذكره بين الاطباء أمر باحضاره فلما حضر أقطعه اقطاعات حسنة وكان الخليفة يسمع بعلمه ولا يأخذ بأى دواء يصفه حتى يشاور فيه غيره . وأحب امتحانه حتى يزول ما في نفسه عليه ظنا منه ان ملك الروم ربما كان عمل شيئاً من الحيلة به فاستدعاه يوما وأمر بان يخلع عليه . وأحضر توقيعا فيه اقطاع يشتمل على خمسين الف درهم فشكر حنين هذا الفعل . ثم قال الخليفة بعد أشياء جرت : « أريد ان تصف لى دواء يقتل عدوا نريد قتله سرا . » فقال حنين : « يا أمير المؤمنين انى لم أتعلم الا الادوية النافعة وما علمت أن أمير المؤمنين

يطلب منى غيرها . فان أحب أن أمضى وأتعلم فعلت ذلك » فقال الخليفة : « هذا شيء يطول » ورغبه وهدده . فلم يزد حنين على ما قاله . فأمر بحبسه فى بعض القلاع ووكل به من يوصل اليه خبره وقتاً بوقت ويوماً بيوم . فمكث سنة فى حبسه دأبه النقل والتفسير والتصنيف غير مكترث بما هو فيه ، فلما كان بعد سنة أمر الخليفة باحضاره واحضار أموال يرغبه فيها . وأحضر سيفاً ونطعاً وسائر آلات العقاب فلما حضر قال الخليفة : « هذا شيء قد كان . ولا بد مما قلته لك . فان أنت فعلت فقد فزت بهذا المال . وكان لك عندى اضعافه . وان امتنعت قابلتك بشر مقابلة وقتلتك شر قتلة » . فقال حنين : « قد قلت لأمير المؤمنين إنى لم أحسن الا الشيء النافع ولم أتعلم غيره » . فقال الخليفة . « فانى اقتلك » . فقال حنين : « لى رب يأخذ بحقى غداً فى الموقف الاعظم فان اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل » فتبسم الخليفة وقال له : « حنين طب نفساً وثق الينا فهذا الفعل كان منا لامتحانك لانا حذرنا من كيد الملوك واعجابنا بك . فأردنا الطمأنينة اليك والثقة بك لننتفع بعلمك » فقبل حنين الارض وشكر له . فقال الخليفة : « ياحنين ما الذى منعك من الاجابة مع ماراأيته من صدق عزيمتنا فى الحالتين » . فقال حنين : « شيئان يا أمير المؤمنين . » فقال المتوكل وما هما . قال : « الدين والصناعة » . فقال الخليفة وكيف؟ اقال حنين : « الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا فكيف أصحابنا وأصدقاؤنا ، ويبعد ويحرم من لم يكن كذلك . والصناعة تمنعنا من الاضرار بأبناء الجنس البشرى لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم . ومع هذا فقد جعل الله فى رقاب الاطباء عهداً مؤكداً بايمان مغاظة ، ألا يعطوا دواء قتالا ولا مايؤذى . فلم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين ووطنت نفسى على القتل . فان الله ما كان يضيع من بذل نفسه في طاعته • وكان يثيبنى » . فقال الخليفة : « انهما الشريعتان جليلتان » • وأمر بالخلع فخلعت عليه . وحمل المال بين يديه • وخرج من عنده وهو أحسن الناس حالا وجاهاً » اه

وبعد مضى سنوات قليلة ابتلى حنين بمحنة أخرى اذ كان بختيشوع بن

جبرائيل - وفى رواية أخرى اسرائيل ابن زكريا الطيفرى الطبيب النسطورنى - قد قلب لحنين ظهر المجن وأصبح يعاديه ويحسده على علمه وفضله وما هو عليه من جودة النقل • فاحتال عليه بخديعة عند المتوكل • وتم مكره عليه حتى أوقع المتوكل به وحبسه • وتجد وصف محنته تلك فى رسالته التى ألفها عما أصابه من المحن والشدائد وتجد هذا الوصف فى كتاب ابن أبى أصيبعه .

والظاهر أن حنينا كان من أنصار الحركة التى اتسع نطاقها فى ذلك الوقت ونعنى بها حركة مانعى الاكرام للصور . ولم يكن حنين ليتألم لشيء مما استصفاه الخليفة من متاعه وممتلكاته تألمه لفقدانه كتبه وحرمانه منها . كما يتجلى فى رسالة صغيرة أخرى بعث بها الى على بن يحيي « عما ترجمه من كتب جالينوس بعلمه ومالم يترجم » قال فيها : بسبب فقدى جميع كتبي التى جمعتها كتاباً كتاباً فى دهرى منذ أقبلت أفهم، من جميع ماجاته من البلدان ثم فقدتها كلها جملة ... »

وفي سنة ٢٤٤ هـ افتضح أمر بختيشوع عند الخليفة فنكبه ونفاه الى البحرين (على الخليج الفارسي) ومنذ ذلك الوقت لم ينزعج بال حنين ولم يعكر صفو حياته حادث مكدر . فاقبل على الترجمة بحمية وغيرة تدعو الى الدهشة وعكف عليها حتى وفاته • وقد عاونه في مهمته تلك ولده إسحق ابن حنين وابن اخته حبيش ورهط من التلاميذ نذكر منهم عيسى بن يحى بن ابراهيم وموسى بن خالد وأبا عثمان سعيداً وعيسى بن على • لكن أحداً من تلاميذ حنين الذين دربهم فى بيت الحكمة لم يصل الى مثل مهارة أستاذه • يؤيد ذلك ما رواه ابن أبى اصيبعة عن موسى ابن خالد الترجمان قال : « وجدت من نقله كتبا كثيرة منها الستة عشر مقالة لجالينوس وغيرها • وكان لا يصل الى درجة حنين أو يقرب منها »

عاش حنين عشرين عاما بعد نكبته الاخيرة مبجلا من الخلفاء الآتين وهم : المنتصر (توفي عام ٢٤٨ هـ) والمستعين بالله (توفي عام ٢٥١ هـ) والمعتز (توفي عام ٢٥٥ هـ) والمهتدى (توفى عام ٢٦٦ هـ) والمعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩هـ) وتوفى خلال خلافة الاخير كما جاء فى (الفهرست) سنة ٢٦٠هـ ولكن الارجح هو أنه قضى نحبه لست خلون من صفر سنة ٢٦٤ هـ كما جاء فى كتاب (عيون

الأنباء في طبقات الأطباء) لابن ابى أصيبعة . وكانت مدة حياته سبعين سنة وقيل انه مات بالدرب • وقيل إن حنينا بدأ ترجمة كتاب «فى قوام الصناعات» لجالينوس قبيل وفاته بشهرين لكنه لم يتمه

ومما يؤسف له أننا لانعلم الشيء الكثير عن طريقة العمل التى اتبعها هذا العلامة الدؤوب فى حياته العلمية • ولم يكتب ابن خلكان فى كتابه « وفيات الاعيان » الذى ألفه فى سنة ٦٥٤ هـ عن أسلوب حنين فى حياته اليومية سوى النبذة الآتية التى نقلها عن رسالة مفقودة من تصنيف عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع (توفى عام ٤٥٠هـ) وهى : —

« وكان حنين في كل يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمام فيصب عليه الماء ويخرج . فيلتف بقطيفة وقد أعد له هناب من فضة فيه رطل شراب وكعكة مثرودة فيأكلها ويشرب الشراب ويطرح نفسه حتى يستوفى عرقه . وربما نام ثم يقوم ويتبخر ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مسمن قد طبخ زيرباجة ورغيف فيه مائة درهم • فيحسو من المرق ثم يأكل الفروج والخبز وينام • فاذا انتبه شرب أربعة أرطال شراباً عتيقا • ولم يذق غير هذا طول عمره ، فاذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامى والرمان والسفرجل »

حياة حنين العمليه

كان حنين متطبباً ممتازاً ذا حظوة عند الخلفاء . وقد نوه ابن أبى أصيبعة بمهارته الخاصة في معالجة أمراض العين ولكن أهم جانب من حياته العملية هو تراجمه التى من بينها كل مصنفات جالينوس تقريبا • ترجمها من اليونانية الى السريانية والعربية

الكتب التى ترجمها حنين

نحن الآن على علم تام بهذا الجانب من حياته العملية بفضل رسالته الى على بن يحيي فى ذكر ماترجم من كتب جالينوس التى يوجد منها نسختان خطيتان فى مكتبة (جامع أياصوفيا) بالاستانة (تحت نمرة ٣٦٣١ونمرة ٣٥٩٠)

ويؤخذ من قائمة وضعها حنين وأتمها أحد تلاميذه أو اصدقائه أنه ترجم الى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين وترجم الى العربية منها تسعة وثلاثين وعدا ذلك فانه راجع وأصلح ماترجمه تلاميذه وهي ستة الى السريانية . ونحواً من سبعين الى العربية . كما راجع وأصلح معظم الخمسين كتابا التى كان قد ترجمها الى السريانية سرجيس الرأسعيني ويعقوب الرهاوى وسواهما من الاطباء المتقدمين .

وقد نقل براون (ص٢٦) عن كتاب الفهرست « إن حنينا كان في الغالب يترجم من اليونانية الى السريانية بينما كان حبيش يترجم من السريانيه الى العربية ويعود حنين فيراجع الترجمة العربية ، على أن حنينا كان في بعض الاحيان يترجم من اليونانية الى العربية رأساً » وكانت التراجم السريانية تعمل في الغالب للاطباء والعلماء النصارى أمثال جبرائيل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه وسلمويه بن بنان وبختيشوع ابن جبرائيل وزكريا الطيفورى وولده اسرائيل وشيريشع بن قطرب وسواهم ، وكانت التراجم العربية تعمل لاعاظم المسلمين الذين اعتنق الكثير منهم الاسلام حديثاً أمثال على بن يحيي كاتم سر المتوكل على الله وصديقه ومحمد بن عبد الملك الزيات وزير الخليفة المعتصم . ومحمد واحمد بنى موسى اللذين كانا من مشاهير الرياضيين وعلماء الطبيعيات ، واحمد بن محمد المدبر والى مصر في أيام المتوكل ، واسحق بن ابراهيم الطاهرى والى خراسان فى أيام المأمون ، واسحق بن سليمان أحد ولاة مصر السابقين

وكان أسلوب حنين فى الترجمة رائعاً ووافيا باغراض علم اللغات الحديث تماما ، وكان ينتقد فى عنف تراجم المتقدمين وتراجمه هو أيضاً لما كان شاباً ، وقد ترجم معظمها من جديد . ومن قوله فى رسالته الى على بن يحيي المذكورة آنفاً عن كتاب (في الفرق) لجالينوس : « ترجمته وأنا شاب ... من نسخة خطية يونانية مشوهة ، ثم لما بلغت الاربعين من عمرى طلب الى تلميذى حبيش أن أصلحها بعد اذ كنت قد جمعت قدراً من المخطوطات اليونانية . وعند ذلك رتبت هذه بحيث نسقت منها نسخة صحيحة . قارنتها بالنص السريانى ثم صححتها . وتلك عادتى التى اتبعتها فى كل ماترجمته . وكان حنين يتجشم رحلات طويلة بغية

الحصول على النسخ الكاملة مثال ذلك : كتاب (فى البرهان لجالينوس) الذى كان نادر الوجود فى القرن التاسع الميلادى . والذى قال عنه حنين : « انى بحثت عنه بحثا دقيقا وجبت فى طلبه أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر الى أن وصلت الى الاسكندرية لكنى لم أظفر الا بما يقرب من نصفه فى دمشق »

ويرى برجسترا سر أستاذ اللغات السامية في جامعة ميونيخ وأعظم حجة فى تراجم حنين العربية : ان حنينا، وحبيشا أفضل تلاميذه الذين تجشموا عناء كبيراً فى التعبير عن معنى أصول الكتب اليونانية بقدر ما يستطاع من الوضوح . وكانا يترجمان ترجمة حرفية حتى ولو ضحيا فى ذلك بجمال اللغة وتنسيق ديباجتها . ولكن تراجم حنين أفضل ودقتها أعظم » . ومع ذلك فان الانسان ليخيل اليه أنها ليست نتيجة مجهود صادق ولكن نتيجة تمكن وثيق من اللغة وحسن تصرف في مذاهبها . ويتجلى هذا فى سلاسة التوفيق بين اليونانية والعبرية والدقة المتناهية فى التعبير مع الايجاز — تلك هي مميزات فصاحة حنين التى اشتهر بها » . ولقد أسهب (براجستراسر) في دحض رأى (سيمون) من أن تراجم حنين وحبيش حافلة بالفقرات المنتحلة الغريبة عن الأصل : ويرى أن طريقتهما فى التعبير ليست على الدوام جميلة ولكنها على الاقل حرفية . هذا ويوجد عدد عظيم من مترجمات حنين لكتب جالينوس فى المكاتب الاوروبية وبالاخص فى مكاتب الاستانة . وهي مودعة هناك فى انتظار فحصها ثم طبعها مع التعليق عليها وشرح غامضها . أما تراجم حنين الاخرى التى لايتحدث عنها فى كتابه فانا أقل علما بها . والرسالة الآنفة الذكر توقفنا على عدد معين من تراجم حنين لكتب ابقراط . مثال ذلك كتاب العضول مع حاشية جالينوس عليه المترجم الى السريانية والعربية وكتاب الكسر وكتاب الخلع وتقدمة المعرفة وتدبير الامراض الحادة وكتاب فى (القروح) وكتاب جراحات العين وكتاب الابيذيميا أو كتاب الامراض الوافدة وكتاب « في الاخلاط » وكتاب (فاطيطيريون) وكتاب الاهوية والمياه والبلدان وكتاب الغذاء وكتاب طبيعة الانسان . وقد أتم تلاميذ حنين شطرا من ترجمة تفسيرات جالينوس الى العربية . وقد ترجم حنين الى السريانية كتاب العهد أو الايمان

مع تفسير جالينوس الذى يرجح بطلانه .وشروح حنين لبعض فقراته الصعبة مع التفسير المزعوم انه لجالينوس والذى يرجح انه لسواه . وقد ترجمه حبيش واسحق بن حنين الى العربية . ونحن نعرف فوق ذلك من كتاب الفهرست ان حنينا ترجم كتاب الكنانيش لاوريباسيوس بحذ افيره وكتابه الى أونا بيوس وكتاب السبع مقالات لبولس الاجنيطى . والمادة الطبية لديوسقريذس . وكلها كتب ضخمة جدا. ولسنا نعرف بالضبط مقدار نصيب حنين في ترجمة مؤلفات رفس وفيلاغريوس. ولكن نسخة باريس الخطية تعزو اليه ترجمة كتاب الجراحة وكتاب الطب البيطرى ليتومنيستوس. ولقد ترجم حنين من كتب الفلسفة الى السريانية كتاب العبادة لارسطو الذى ترجمه ولده اسحق الى العربية . واسحق هو أعظم مترجم لكتب ارسطو الى العربية . ولقد راجع حنين كثيراً من تراجمه . ويعزو اليه كتاب الفهرست (ص ٢٥١) ترجمة كتاب الكون والفساد الى السريانية وفي ليون نسخة من كتاب الطبيعة لارسطو منسوبة ترجمتها الى حنين .ولكن هذا غير محقق . اما عن كتاب فى (النفس) فالارجح ان حنينا ترجمه الى السريانية بينما ان مترجمه الى العربية مجهول وتعزى الى حنين ترجمة كتاب جوامع فلسفة ارسطو لنيقولاس الدمشقى كما يعزى اليه ترجمة كتب اسكندر الافروديسى والمدخل الى الفلسفة لفورفوريوس وشرح تاميستيوس لكتب ارسطو . ويعزى اليه فوق هذا تفسير رياضى لكتاب أوطوقيوس في الكرة وفى الاسطوانة .

ونحن على ثقة من ان كثيرا من ترجمة الكتب الزائفة المذكورة آنفا قد نسبت خطأ الى حنين اذ كانت تلك عادة بعض مؤرخى تراجم الحياة في اللغة العربية . ومما أوقعه في هذه الاخطاء تشابه اسمى حنين وحبيش فى الكتابة الخطية على عهد ان الحروف كانت لاتنقط . وعدا هذا فقد نزع الكثيرون من أطباء العرب في القرون المتأخرة الى استعارة اسم حنين لمؤلفاتهم الزائفة . ونثبت فى النهاية قول ابن القفطى ان حنيناً ترجم الى العربية كتاب العهد القديم من اليونانية وكان قد ترجم من العبرية خلال حكم بطليموس فيلادلفيوس . وقد فقدت للإسف

هذه الترجمة كما فقد سائر تراجمه الى السريانية وشطرا كبيرا من تراجمه العربية .

مؤلفات حنين

لحنين مؤلفات باللغتين العربية والسريانية . فاما عن الثانية فاننا لانعلم الا القليل ولم تسلم لنا منها نسخة واحدة كاملة

وقد أورد ابن أبي اصيبعة أكمل قائمة فى اللغة العربية وهى تحتوى على أكثر من مائة كتاب فى مختلف فروع الطب . وأهم هذه الكتب كتاب العشر مقالات فى العين الذى يعتبر أول كتاب فى طب العيون الف على الطريقة العلمية .

الموقف السياسى

اما تحكيم الاغلبية واما الغاء الدستور

تمهيد — ١ — حكم الاكثرية — ٢ — حزب الاغلبية — ٣ — الغاء الدستور — ٤ — وما خفى كان اعظم — ٥ — الوزارة الجديدة — ٦ — ثم يقولون — ٧ — الصفح والمغفرة — ٨ — اين الدستوريون ؟ — ٩ — طريق واحد

— تمهيد —

لامفر لنا من أحد أمرين . يجب أن نواجه فيهما الحقيقة المرة . فاما أن تحكم الاغلبية البلاد . واما أن يلغى الدستور . ولا مراء فى أن الالتجاء الى أحد الامرين أهون علينا وأرضى لعقولنا من أن يكون لنا دستور أقسم جلالة الملك على احترامه ، وأقسم النواب يمين الأمانة له ، ثم تحكمنا أقلية رغم أنوفنا ، وعلى الضد من اراداتنا .

ويا ليتها وقفت عند الاقلية التى تحترم فيها صفات أفرادها الذين يكونونها ، بل هى أقلية ائتلافية ، الاغلبية فيها من حزب الاقلية ، والاقلية فيها من حزب ، هو أجدر الاحزاب بأن يدعى حزب الخفافيش الذين لا يرون الا فى الظلام ، ولا يهتدون الى غرضهم الا فى ظلمة الحلك ، بل هو حزب مبغوض ملعون من مصر ومن أهل مصر فى الدنيا والآخرة .

١ — حكم الاكثرية

يقولون فى أول مايقولون به إن الاغلبية من الرعاع والسوقة ؛ ولست أدرى فى أية أمة كانت الاغلبية من الفلاسفة والمصلحين .

ثم يقولون بأن الاغلبية تحتكم فى مصالح البلاد بما ترضى شهواتها. ولست أدرى متى وفى أى وقت حكم حزب من الاحزب مصر حكم النزاهة والشرف .

ثم يقولون بأن الأمة لايصح أن يكون حكمها مقطوعاً بصحته فيمن ترضى أن يكونوا حكامها المعبرين باسانها ، ولست أدرى لماذا يعطون مثل هذه الامة حقاً تسىء استعماله — اذا كانوا لايأنسون من الامة رشدا .

ثم يقولون بأن الدستور منحة إن شئنا تركناه وان شئنا أخذناه ؛ ثم هم يقسمون على احترامه وأن مصدر السلطات كلها الامة .

ثم يقولون بأن من حق جلالة الملك أن يقيل الوزارة بنص الدستور . ولكن الا ينص الدستور بجانب هذا أن حزب الاغلبية هو الذى يحكم البلاد ويكون مسؤولا امام البرلمان الا اذا أولى غيره من الاحزاب ثقته أو تركه يحكم البلاد تحت اشراف البرلمان ؟

ثم يقولون بأن حزب الاغلبية يسىء استعمال السلطة التى يخولها له الدستور ، ولكن هل لسلطة غير سلطة الامة أن تحاكم من أساء استعمال سلطتها .

ثم يقولون بأن الامة خاضعة ، نعم ولكن لمن اولتهم ثقتها ؛ فهل لغير هؤلاء تخضع ؟

ثم يقولون أن الثقة التى توليها الامة لحكومة الاكثرية انما هى ثقة لاوزن لها لان الامة لاتقدر حقوقها وواجباتها . فليكن .

ولكن هذه الامة ذاتها تعلم أن لها دستوراً وتعلم بجانب هذا أنها راضية عن حكم الاغلبية التى أولتها ثقتها . وكفى .

ثم يقولون بأن الأمة ليس لها أن تعدل فى تكوين أحزابها كما تشاء ، ولذا ينصرون حزباً على حزب وفريقاً على فريق . وإذا سألتهم لماذا ؟ يقولون لخير الامة ! وهذا غريب . لان الامة رفضت مراراً عديدة ذلك الخير الذى أرادوه لها وشكرتهم على حسن نياتهم . ثم من بعد ذلك يقولون « الامة تريد والامة لاتريد » كأن ذلك الدوى الشديد الذى خرق صماخ وزارة الخارجية البريطانية لم يعم بعد جنبات القاهرة ، ولم يصل بعد إلى آذانهم .

كل هذه المتناقضات تقوم بقيام الدستور . ولا مراء فى أن المخرج الوحيد من هذا التناقض ينحصر فى شيئين لاثالث لهما : فاما حكم الاغلبية واما الغاء الدستور .

ـ ٢ ـ حزب الاغلبية

يقولون بأن حزب الاغلبية لايعبر عن رأى العقلاء . ويقولون بأنه لايفسر حقيقة الموقف السياسى تفسيراً صحيحاً . ويقولون بانه لايعرف الحق من الباطل . ويقولون بانه لايميز بين الشر والخير . ويقولون بانه لايريد الآن يستغل الامة لمصالحه ومصالح أفراده . ويقولون بانه يسخر الدستور لمصالح رئيسه وأذنابه . ويقولون ويقولون . ولكن ماذا يكون قولهم اذا سلمنا لهم جدلا بان كل هذا صحيح ، وأنهم جميعاً من هذه التهم التي يكيلونها لحزب الاغلبية أبرياء ، وقلنا لهم بجانب هذا أن هذا الحزب على مفاسقه ومفاسده هو الحزب الذى تريده الامة ؟ لاجرم أنهم

لايلجؤون الا لاحد أمرين . فاما ان يلغوا الامة أو يلغوا الدستور . فليشمروا عن سواعدهم . فالامة اكلها الفقر والعوز . وهم يتناحرون على مسرح السياسة . والدستور أصبح هيكلا نخراً بعد ان اعتدت عليه الايدى الاثيمة سواء فى ذلك حزب الاكثرية والاقلية . فالاكثرية تستعين عليه بسلطتها ، والاقلية تستعين عليه بمن لايعلم امره الا علام الغيوب :

٣ ـ الغاء الدستور .

يقولون بأن الدستور منحة منحتها الامة من السلطة الفعلية ووافقت عليه السلطة الشرعية . ويقولون بأن ابناء مصر لايعرفون من معنى الدستور الا الاسم . ويقولون بأن « منح » الدستور كان قبل اوانه ، ويقولون بأن الامة من الواجب ان تتدرج فى الحكم شيئا فشيئاً ، حتى تكون اهلا لان يكون لها دستور . ويقولون بأن المنحة من حق مانحها . ويقولون ويقولون !

فلماذا اذن لايثيرون على مانح الدستور ثورة حق واعتقاد بأن يلغى الدستور وأن يسترد المنحة ، وكفى الله المؤمنين القتال . لماذا يعلنون كل يوم بأنهم حماة الدستور وأنهم خالقوه وأنهم مانحوه دون مانحه ، ولماذا يتيهون على الامة عجباً ودلالا ، بأنهم الدستور ؛ وان الدستور هم ، فى حين أنهم لايظهرون الا على انقاضه ولا يقومون الا على دارس أطلاله ، ينوحون على الحرية المخذولة وعلى الحمى المستباح ؟

لا أريد أن أنصر حزب الاغلبية ولا أريد أن انتقد حزب الاقلية ولكن اريد ان لا اسير فى الظلام . اريد طريقاً واضحاً سهلا . فأما ان

اكون حراً فاستعمل حقى فى الحرية واحكم كما اريد ان خيراً فخير ، وان شراً فشر ؛ وذلك حقى الطبيعى ، واما ان اكون غير حر ، فاخضع لذلى وانزوى مسكيناً حقيراً .

احد امرين ايها السادة النبلاء . إما حرية تستعمل كيف تشاء الامة مصدر السلطات . واما استبداد ينصرف الى حيث تهب رياح الحوادث .

٤ — وما خفى كان اعظم

اذا كان هذا مايقولون ، او بعض مايقولون ، واذا كان هذا جزء من مجموع المتناقضات التى تقوم مع قيام الحكم الدستورى ، واذا كانت هذه هى النزعات التى تقوم فى صدر الذين يشتهون حكم هذه الامة بالحق او بالباطل ، وسيان عندهم حق وباطل لان الامة « على الرف » ، واذا كان هذا مايجول فى خاطر الذين يريدون ان ينظروا فى امر الحرية المستباحة نظراً «مستقيما» غير معوج ، واذا كان هذا هو الظاهر ، فلا جرم ان ما خفى كان اعظم .

٥ — الوزارة الجديدة

سوف تتشكل ، او ان شئت فقل تشكلت ، من حزب الاقلية فى مجلس النواب يعاونه افراد من حزب الخفافيش او حزب الاتحاد ، او حزب نشأت . اذن سيقوم حزب الاحرار الدستوريين حيث اقام نشأت . واذن سيكون لحزب الخفافيش يد فى حكم هذه البلاد . فاللهم عفوك وغفرانك .

ومن يدرينا ، فلعل قراء هذه المجلة لايقرؤون هذه السطور إلا

ويكون نشأت قد ظهر على مسرح السياسة . ويكون البرلمان قد حل
وذهب فى خبر كان ، او مايجرى مجراها

ولكن يجب ان نواجه الحقيقة المرة . يجب ان نقدر الموقف
تقدير من لايريد ان يسلك حيث تسلك الخفافيش

سوف تتشكل الوزارة وسوف يقوم الحكم فى البلاد على أقلية
تعاونها بضعة من الخفافيش . اذن وجب علينا أن نقدر أن تتقدم الوزارة
الى البرلمان ببرنامج تطلب ثقته ، فاذا أولاها الثقة كان خيرا ، واذا لم يلها
ثقته ، وذلك مفروض فرض تعيين ، كان أمامها أحد أمرين . فاما الاستقالة
واما حل البرلمان . فاذا استقالت وجب أن يعين غيرها . فاما من حزب
الاقلية . فيكون مصيرها مصير سابقتها . واما من حزب الأغلبية . واذن
تكون اقالة الوزارة الاولى عبثاً . واذا حل البرلمان ، كان أمام الوزارة أحد
طريقين . فاما أن تعيد الانتخابات ونتيجتها من الآن معروفة وانها سوف
تكون مع الحزب السعدى . وهنالك اما ان تسقط هذه الوزارة وتستخفى
الخفافيش ، واما أن يلغى الدستور ، وفى اعتقادى أن الحل الاخير أوفق
الحلول . ولخير لى أن أكون عبداً أطالب بحريتى ، من أن أكون حراً
لا أساوى العبيد .

٦ — ثم يقولون

ثم يقولون بأن النحاس رئيس حزب الأغلبية ورئيس حكومة
الأغلبية قد ارتكب جرماً واقترف اثما . يقولون بأنه حاول أن ينصب
بحكم مركزه فى الوزارة وفى حزب الأغلبية . ويقولون بأنه ورئيس
مجلس النواب ونائب ما من النواب الذين شاء القدر أن يكونوا نواباً

قد احتالوا على وكيل دائرة سيف الدين . وأمضوا معه عقداً وفسره النائب بخطاب ، فكان من مجموع ذاك ظرف يعاقب عليه القانون . ويقولون بأن رئيس الوزارة رجل عمومى للأمة أن تطلب محاكمته ، بل لانكون قد تجاوزنا حد الادب اذا طلبنا من جلالة الملك أن يأمر بمحاكمته ، باعتباره حارس الدستور الاول والمثل الاعلى فى احترام العدل والحرية . بل لا نقول لهم اطلبوا محاكمة النحاس ورئيس مجلس النواب ونائب من النواب لاغير . بل نقول لهم اذا ثبتت عليهم التهم إذن فاسجنوهم أو انفوهم أو حرقوهم أو قطعوهم إرباً أو اشنقوهم ، فالحبال كثيرة والجلاد بالمرصاد . ولكن لا تشنقوا معهم الحرية ولا تعبثوا بالدستور باسم الدفاع عن الدستور . فالامة لها رأيها ولها أغلبيتها ولها ارادتها التى يجب أن تحترم والتى يجب ان تحنى لها اكبر الرؤوس ما دام قد اعترف بحقها فى الحرية ، وفى ان تحكم على الوجه الذى تريده هى لا الذى يريده له غيرها . اوهناك مشورة اخرى هى احرى بكم وانتم احرى بأن تنفذوها . وعندى ان الاخذ بها ارضى للعقل وارخى لزمام الفكر . مشورة لاثانى لها إذا ارتم ان ترضوا عقولنا . الغوا الدستور اولا ، ثم اشنقوا النحاس وصحبه فى اوسع ميدان من ميادين العاصمة .

— ٧ الصفح والمعذرة

لست من حزب الاغلبية ، ولست من حزب الاقلية . لست من السعديين فينتصر لى الرعاع ولست من الدستوريين فينتصر لى العقلاء . بل انى ولله الحمد من حزب « الملحقات » . من حزب الخيال والوهم . من حزب الاربعة ملايين التى اخذناها من الانجليز إبان الحركة الاخيرة

لتنصر الأنجليز على سعد . رحم الله هذه الملايين الاربعة فقد ظللنا طوال عشر السنوات الاخيرة ومعنا ملحقاتنا لا نملك شروى فقير .

انما اطلب الصفح والمغفرة لأنى فى موقفى هذا ادافع عن حق البلاد. ادافع عن الحرية المستباحة والحمى المداس بالاقدام . لايعنينى بعد ذلك اساءت الامة استعمال هذا الحق ام احسنت فيه . لايعنينى فى الامر بعد الحرية الا ان اكون معارضاً نزيهاً ، احترم حق الامة ، ولكن لا افوت للاغلبية هفوة تأتيها .

اطلب الصفح والمغفرة لا من احد معين ، بل من كل الاحزاب ، وقد تكالبت على الظواهر تكالب السباع الجائعة على الرمم المنتنة ؛ حتى لقد نسيت ان للأمة حقوقا يضحى بها ، وأن لها حرية توطأ بالنعال .

٨ — اين الدستوريون ؟

لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لاحياة لمن تنادى

يايها الدستوريون هبوا من مضاجع الوزارات فالدستور فى الحضيض . تنبهوا قليلا لحق الحكم للامة والامة تريد الاغلبية ، فهل لكم ان تكونوا « دستوريين » بحق وأنتم تتربعون فى دست الوزارات على الرغم من انف الامة وأنف الدستور وأنف الحق نفسه .

يايها الدستوريون ! ان لكم حق المعارضة وليس لكم ان ترغموا على الائتلاف . صدعوا الائتلاف واضربوا بالنحاس وصحبه عرض الافق والاوسع ، ولكن لاتضربوا معهم الحرية الدستورية فتضربوا بأنفسكم الارض .

يايها الدستوريون ! بالامس اتفقتم مع حزب الخفافيش فساروا

بكم فى الظلام وما اخرجوكم الى النور الا وأنتم حيرى لاتعرفون الطريق. واليوم تأتلفون وحزب الخفافيش لتخرجوا من بعد عمياً لاتبصرون .

يا أيها الدستوريون . ! مالكم مفر من احد امرين . فاما اعادة استفتاء الامة وعندها ترجع الاغلبية التى تحتلون اليوم مراكزها فى الظلام . واما ان تلنوا الدستور فتكونوا قد عاندتم اول مبدء من مبادئكم بل أول سنادة من سنادات وجودكم .

يايها الدستوريون ! هل تسمعون ؟

٩ — طريق واحد

نؤمن بأن اغلبية السعديين فى مجلس النواب ساحقة وانها اكثر مما يجب ان تكون. ونؤمن بأنه من الارفق بصالح هذه الامة ان يكون بين الاغلبية والاقلية تقارب ما فى القوة والاستعداد . ونؤمن بأن اضعاف حزب الاغلبية يكون اكثر عوداً بالنفع على شكل الحكم وعلى البلاد . ولكن لانؤمن بجانب هذا ان تداس الحرية ويقبر العدل تحت عنوان الاصلاح الموهوم . وتحت عنوان الاخذ بيدالامة لتعرف حقاً هى لاتريدان تعرفه بطريق القهروالارغام .

إننا نكون اقرب الى الهدى اذا تركنا الدستور كاملا وحق الامة فى تطبيق دستورها كاملا فيحكمنا حزب الاغلبية كما يريد، ونقوم ازاءه بمعارضة نزيهة اساسها التعاون على الاصلاح قبل كل شئ ، فننال من الثقة قدراً يفقده حزب الاغلبية على مدى الزمان حتى تتوازن القوى من طريق طبيعي معقول . هذه هي الخطة الحكيمة اما الاضطهاد فمن

شأنه ان يزيد الاقلية قلة، اذا عمدت اليه ، وان يزيد الاكثرية كثرة . وتلك طبائع الاجتماع .

اما اذا اردتم غير هذا فالغوا الدستور ، وإذن نستريح وترضى عقولنا وضمائرنا . ولخير لى ، كما قلت اولا، انا اكون عبداً اطالب بحريتى، من ان اكون حراً لا أساوى العبيد .

بوليطيقوس

شريد أيطالى

يصبح ملكا فى جزيرة مدغشقر

١٧٩١ — ١٨٢٨ — ١٩٢٨

***

اعتادت أسرة « بونيتو » الايطالية ، وهي أسرة تمتهن الزراعة ، وكانت تعيش في مقاطعة « فريولى » فى أوائل القرن التاسع عشر أن يردد أفرادها الكلمات الآتية :

« عند مايعود أخونا فرانشسكو من أفريقية سنكون قادرين على أن نشترى بيتاً صغيراً ، وتعيش عيشاً أكثر رغداً . »

أما فرانشسكو هذا فقد مات فى جزيرة مدغشقر ، تاركا ميراثاً يقدر بخمسة وسبعين مليوناً من الليرات الايطالية ، هو برمته حق لأقاربه الذين تركهم يفلحون الارض على ضفاف نهر « البياف » بايطاليا . غير أن أقاربه ظلوا لا يعرفون شيئاً عن ذلك الميراث الكبير الذى تركه لهم فرانشسكو ، وماتوا جميعاً وهم يحلمون بذلك البيت الذى عللوا النفس بأن يملكوه يوماً من الأيام . أما أخبار ذلك الشريد فلم تصل الى مسامع أحد من أهله إلا بعد ثلاثة أجيال سوياً . وهم بعد في فقر مدقع ، وليس لهم من المؤهلات التى يحتاج اليها أهل هذا الزمن للدفاع عن حقوقهم من علم أو تهذيب أو قوة ، كثير أو قليل . ومع كل هذا فان الأمل لم يمت فى نفوسهم ، فاحتفظوا جيلا بعد جيل بشهادة ميلاد عمهم الأكبر فرانشسكو ، وبعض الوثائق الأخرى التى تثبت قرابتهم به .

ومنذ عهد قريب ، وبعد مائة سنة كاملة من وفاة هذا الشريد ، ولج مزرعة أسرة « بونيتو » على نهر البياف شخص غريب الاطوار ، غير أنه ممن يعتمد عليهم ويوثق بهم وبعد أن استوثق لنفسه أخبر أسرة بونيتو بأن فى مستطاعه أن يرد اليهم ميراثهم الشرعى ، وأنه سيأخذ بيده فى هذا الامر شخصان لا يبوح

باسميهما . أما هذا الميراث فيتكون من مزرعتين كبيرتين . وكل الذين يعيشون على تخوم هاتين المزرعتين يعرفون هذا السر بتفاصيله، ولكن الويل لمن يبوح، والموت لمن يفشي سر أبي الهول .

ولقد نشرت أخبار كثيرة عن فرانشسكو بونيتو منذ أن مات في سنة ١٨٢٨

ولد هذ « الملك الشريد » في سنة ١٧٩١ ؛ وخرج من قرية « فيتوريو فينيتو » الصغيرة هارباً من وجه الشرطة وقد تعقبته لتقبض عليه، فسولت له شجاعته وحبه للمخاطر أن يلجأ الى أفريقية حيث يكون في مأمن من أن يناله عدل القضاء الايطالي .

وصودف أن اتصل ببعث انجليزي للتبشير فرافقهم الى جزيرة مدغشقر ؛ حيث وقعت « رافافولو » الصغيرة ملكة قبيلة « الهووا » في حبائل غرامه . ولقد نال عدة انتصارات عديدة في حروب وقعت بين قبيلة « الهووا » وغيرها من القبائل فذاع صيته وعمت شهرته ؛ فنصب في مكان الزعيم الحربي للقبيلة ، وتزوج من الملكة الصغيرة فأصبح بذلك الشريد الايطالي ملكا مطاعاً في أرض مدغشقر .

وحكم الشريد تحت اسم الملك « راداما » الاول ، وأكثر من الفتوحات والسلب . وكون جيشاً كبيراً غزى به غيره من القبائل وعقد معاهدات مع بعض الامم الاوروبية وجمع ثروة طائلة أودعها شركة الهند الشرقية .

غير أن زوجته ، الملكة الصغيرة ، بدأت تأكلها الغيرة لان زوجها كان محبوباً من كل بنات الجزيرة . وفي سنة ١٨٢٨ أرادت فرنسا أن تملك الجزيرة وأرسلت جيشاً تغزوها على الرغم من أن انجلترا كانت قد أعلنت استقلال الجزيرة استقلالا تاماً . وفي هذه السنة نفسها مات فرنشسكو بونيتو « ملك » مدغشقر في سن السابعة والثلاثين ؛ مسموماً على قول البعض ؛ وقتيلا في احدى المواقع التي قامت بين أهل الجزيرة وجيوش فرنسا على قول آخرين .

وظل اسم الاسرة الاصلي «بونيتو» نسيا زماناً ما ؛ لان هذا الملك الشريد، كان يعرف دائماً باسم «فرانشسكو ري» مما جعل أسرة من أسر مقاطعة «بيدمونت»

في ايطاليا اسمها « ددرى » أن تدعى وراثتها للشريد الايطالى وطالبت بأن تقتسم ميراثه الكبير .

ويقول الآن بعض الباحثين أنه لاشبهة مطلقاً في قرابه أسرة بونيتو لفرانشيسكو الطريد . غير أن ما ينتظر الآن ظهوره بفارغ الصبر هو ظهور شخصية أولئك الاشخاص الثلاثة الذين ظلوا يحافظون على ثروة « الملك » الايطالى طوال هذا العهد الطويل ! ولا شك فى أنهم قد توارثوا هذه المهمة منذ ثلاثة أجيال على الاقل . وما أحسن قول الشاعر :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود



أميل لودويج

صورة

أتحفت ألمانيا العالم بعد ان وضعت الحرب أوزارها كاتبا فذا اشتهر بنوع جديد من الادب هو تصوير الحياة بالكلمات بحيث تبدو كأنما قد أبدعها فنان طب بتنسيق الالوان والتجويد فى ابراز خطوطها وظلالها . ذلك هو أميل لودويج اليهودى الاصل والالمانى الثقافة

ناهز أميل لودويج السابعة والاربعين من عمره وكان قبل اشتغاله بالادب يمتهن المحاماة ويتخذها صناعة له. الا أنه ما كاد يستوفى الخامسة والعشرين حتى نزع الى الادب لانه كان منذ نعومة أظفاره شديد الميل الى التأليف المسرحى. اذ كان قد ألف قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره قدرا عظيما من الروايات المسرحية فقد معظمها وأخرج منها عدد ليس بالقليل. وما زال حتى الآن يؤلف الدرامات نثراً ونظما . ولعل انصرافه الى كتابة تواريخ الحياة على الطريقة التى يصفها فيما يلى هى نجاح الكتاب الذى روى فيه قصة حياة بسمرك فى أسلوب جديد أعتبر فى ألمانيا فتحا فنيا وأدبيا واليك ما قاله عن طريقته :

« إنى لما كنت بحكم مولدى وتربيتى وعائلتى من المفكرين الديمقراطيين لم أسخر قلمى قبل الحرب فى خدمة الامراء . وفى خلال الحرب لم اكتب كلمة واحدة ضد أى شعب من الشعوب . فلما انتهت الحرب بويلاتها كنت على الدوام أناصر الجمهورية . ولكنى كنت على الدوام أمنح نفسى كامل الحرية فى أن أكتب عن أهل النباهة وأصحاب العبقرية من أى بلد كان ولأى شعب انتسبوا . »

« انما يشوقنى قبل كل شيء حين بحثى فى حياة هولاء الرجال أن أعين الحد الفاصل بين العبقرية والاخلاق. ولقد فطن الكتاب فى انجلترا بداءة ذى بدء الى وجوب ملاحظة العوامل الانسانية والانسانية الكاملة وعدم اغفالها فى كتابة التراجم بل من اللازم توكيدها . ومنذ ان فطنت الي صواب ما ذهب اليه

كتاب الانجليز وجاليل قيمته شرعت أدأب في رسم صورة حياة جوتةوسواهمن المفكرين ونابليونوغيره من رجال العمل . وكانت بعض الصور التى رسمتهاصغيرة هى عبارة عن« كروكيات» و بعضها مسهب والبعض الآخر بين هذه وتلك .

« وأبغض مايكون الى تلك الروايات التاريخية التى تزيف التاريخ وتمسخه وتزيف الفن القصصى فى وقت معا . ان مثلى الأعلى هو رواية مبنية على تفاصيل دقيقة يؤيدها التاريخ ويجزم بصحتها ولكنها مع ذلك تزداد جلاء ونصوعا ودقة بما ينسجه الخيال من خيوط

ان تلك المهمة على غاية السهولة « للفنان الاديب الذى يعلم أن المصائر الانسانية وما قدر لبنى البشر صغيرهم وكبيرهم على حد سواء مقررة مبثوث فيها ويعلم على ذلك أن الله هو أسمى الروائيين على الاطلاق »

هذا وأميل لودويج ذو وجه باهت يسترعى انتباهك كما لو كان قد برز من صورة لفنان عظيم وقد كان وجهه في حداثة سنه يشبه وجه بيرون وهو ذو خلابة تشع من شخصيته المتألقة رصين التفكير واسع الاطلاع لا يمل قراءة وبحثا . وقد صور لنا حياة الكثيرين من أصحاب الشخصيات التاريخية ومسح عنها السحر الذى خلعته عليها التقاليد والآراء الشاسعة . وفي مقدوره أن يصفى جوهر نفسه من الميول والاغراض ساعة يكتب وأن يهب نفسه لموضوعه متشبعا بدقائق حياة من يكتب عنه وقد أجاد في وصفه بأنه يشبه أن يكون خادم الذى يكتب عنهم وزوجته وأمه وصفيه بل وضميره أيضا . ويكاد يكون قد تجسس عليه فى فراشه وفي الحمام ساعة يغتسل . وفى مكتبه أو غرفة مجلسه أو غرفة عرشه صبحا وظهراً واذا جن الليل . إنه يصور رجاله العظماء فى الحقير التافه من شئونهم ولكنه لا يسلبهم عظمتهم بل يخلعها عليهم كاملة غير منقوصة . انه يرد رجاله الكاملين ـ من طراز السوبرمان ـ الى مصاف العاديين ولكنه لا يبخل عليهم بمجدهم كل مجدهم »

هذه صورة مصغرة لاميل لودويج الذى تحدثت عنه أوروبا جميعها بل وأمريكا فمن قادح أو مادح ومن ملتزم جانب الحياد ازاء كتابه المسمى :«ابن الانسان» Son of Man والذى صور فيه حياة المسيح على اعتبار أنه انسان لا إله ولا «من روح الله»

ميراثنا عن داروين

عن الاستاذ أرثر طومسون

بقلم الاديب احمد افندى صبرى سعيد

ربما راح بعض الناس يظنون أنهم ليسوا مدينين لداروين بأى شيء على الاطلاق . لكن هذا مستحيل مالم يكونوا قد ألغوا عقولهم وكفوا عن كل تفكير . فحتى اذا كانوا قد اختبل فهمهم وعقم ادراكهم الى حد الاعتقاد بأنه لم يكن ثمة نشوء وارتقاء في العضويات قط . فانهم مدينون لاقناع داروين الصادر عن روية واناة بضرورة تحصين أنفسهم وراء متاريس يتطلب تشييدها شيئاً من الحذق ويتطلب فوق الحذق شجاعة . وفي الحق أننا مدينون لخصومنا بشيء ما .

إذا سأل سائل : « كيف صارت المخلوقات الحية التى نعرفها الى الحال التى هي عليها الآن ؟! » ألفينا أنفسنا أول الامر بازاء أمرين لامعدى لنا عن الاخذ بأحدهما

فلقائل أن يقول : هذا سؤال لايمكن الاجابة عليه علمياً . إن عالم الحياة جد غريب تكتنفه الاسرار من سائر نواحيه وشتى جهاته بحيث لايمكننا الوقوف على جلية الامر فيه بالطرق العلمية .

لقد طالما تراءت هذه المعضلة كأعماق المقدو راجلة الرأى فيها . ولكنها تكاد تدخل في جملة المعتقدات اليقينية التى تتأبى على النظر . والتى تضرب بينها و بين العقول حجاب صفيق .

إن القضايا الوحيدة التى تبقى بلا حل فى هذه الطبيعة هى التى لاتطبق عليها الطرق العلمية — مثال ذلك قضايا بدء الحياة ومنتهاها والقصد منها . ولكن العلم يمكن تطبيقه على مسألة أصل النباتات والحيوانات الموجودة الآن . وهذا هو ماأقام داروين الحجة عليه وأدلى فيه بالدليل القاطع .

النظرية الوحيدة القائمة

وإذن لو أننا قررنا عند مفترق الطرق أن التفكير على النمط العلمى فى نشوء

وتقدم النباتات والحيوانات يجدى ويفيد . تعنى علينا أن نسأل : ماهى النظريات العلمية القائمة فى هذا الصدد وذلك الميدان النشوئى . والجواب على هـذا السؤال هو أن نظرية داروين العـامة في نشوء وارتقاء العضويات هى النظرية العلميـة الوحيدة الجديرة بالنظر والاعتبار .

إنها نظرية وصفية تبسط لنا الطريقة التى صارت بها المخلوقات الحيـة الى ماهى عليه الآن — أى بطرق طبيعية أحدثت فيها تغييرات تمـاثل تلك التى بواسطتها نشأت حيواناتنا المستأنسة ونباتاتنا التى نزرعها فى أصولها المستوحشة أى التى كانت تنمو وتعيش في الطبيعة .

التطور العضوى عملية طبيعية لغير جنسى Rcial change فى اتجـاه معين تحدث خلالها تغايرات أو انحرافات جديدة موروثة ومهذبة تؤدى الى نشوء أنواع جديدة قد تحل محلا أو تعيش جنباً الى جنب مع النوع الاصلى الذى تولدت منه وعلى مقتضى نظرية التطور فى صورتها العامة يكون الحاضر وليد المـاضى ووالد المستقبل .

واذا لم تـكن الطيور قد تولدت في الزواحف التى تربطها بها صلات عديدة فمن أين جاءت !؟ واذا لم يكن الحصان الحالى قد تولد فى نوع الخيول المنقرض ذى الثلاثة حوافر والذى توجد منه متحجرات كثيرة فمن أين جاء ؟! ان الجواب النشوئى هو الجواب العلمى الوحيـد الموجود في هذا الصـدد . وهو الجواب الذى أدلى به دارون .

ان بعض الذين ينـكرون أى فضل لداروين عليهم ، يفزعون من الوصف الذى تقدمه العلوم الطبيعية عن الـكيفية التى صارت بها الاحياء الى ماهى عليه الآن . لانهم يظنون أن هـذا الوصف يستثنى الله ويستبعده ويتركه جانباً ولـكن العالم النشوئى مايزال الباب مفتوحا أمامه حيناً ينتقل من البحث العلمى أى المنازع الدينية والفلسفية لان يعتقد أن وراء جميع العمليات الطبيعية يوجد فـكر وقصـد آلهيين هما ارادة الله وقدرته . ولـكن تلك حقيقة بعيـدة عن متناول العلم .

عوامل داروين

أن بعض الذين تقدموا داروين لم يذهبوا الى أبعد من الفكرة العامة — فكرة التغييرات المتتابعة التي تطرأ على الانواع . فالحيوانات الفقارية نشأت من الحيوانات اللافقارية . وذوات الحياتين (الامفيبيا) نشأت في الاسماك . والطيور وذوات الثدي نشأت في صنوف معينة من الزواحف انقرضت . وهلم جرا . ولكن لم يتقدم أحد أول الامر بنظرية عن العوامل التي تسبب هذا التطور .

واذن ثاني الخدمات العظيمة التي حبانا بها داروين هي تقدمه بنظرية روى فيها الفكرة وأمعن النظر في العوامل التي تسبب عنها النشوء والارتقاء . ولم يكن حشده البينات عن النشوء والارتقاء هو الذي فاز باقناع أغلب المتنازعين المتنافسين من أهل الاستنارة والفكر . بل هو تفسيره المسهب عن « كيف » حدثت هذه العملية السامية .

لقد أضاف داروين النظرية الوصفية للنشوء والارتقاء التي هي في حد ذاتها حقيقة ثابتة ، نظرية مستفيضة عن العوامل . فأظهر كيف أن مانشاهده اليوم في عمليات التغاير والوراثة والانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي وما شاكل ذلك . تقدم لنا الدليل على عمليات مشابهة مماثلة لابد من أن تكون قد حدثت في الماضي .

التغير والوراثة والتهذيب والانتخاب .. . تلك الكلمات الاساسية التي تدور حولها النظرية الدروينية في معناها الحاضر . وأن الظن بأن داروين قال الكلمة الاخيرة في عوامل التطور العضوي أن الافتراض تنافي حقائق النشوء والارتقاء منافاة تامة . ان نظرية النشوء والارتقاء تتطرد في الزيادة والنمو وهناك اختلاف كبير في الرأي بين علماء التاريخ الطبيعي في الوقت الحاضر بشأن أهمية العوامل المختلفة التي اهتدى اليها داروين وكشف عنها . وليس في همنا مناقشة هذه الاختلافات في الرأي لأنها خارجة عن موضوع مقالنا هذا . ولكننا نريد توضيح نقطتين فقط . أولهما : أن داروين وضع نظرية متماسكة معقولة في العوامل التي تعمل في التطور العضوي — نظرية اعتبرها علماء التاريخ الطبيعي فرضاً صحيحاً لدى تطبيقه من هكسلي وهوكر الى السير راي لانكستر الذي مازال حياً

مكباً على البحث . وثانياً . انه بينما نعلم عن التغاير والانتخاب كثيراً مما كان محجوباً عن دارون . فانه هو أول الدليل القاطع على أن تلك الظواهر الاساسية فى الحياة يمكن بحثها بالطرق العلمية .

مكان الانسان فى الطبيعة

وثالث الخدمات العظيمة التى حبانا بها دارون . هى وضعنا فى مكاننا ككائنات حية متسعة مع بقية المخلوقات . فلقد كان كتاب تسلسل الانسان نتيجة منطقية وذيل معقول لكتاب « أصل الانواع » . والانسان بكل مايميزه ويقفه فى عزلة تامة عن سائر المخلوقات . وأحد أفراد نوع مشترك بينه وبين القردة الشبيهة بالانسان

انما كان الانسان تاج الخليقة بما ميزه فى عقل ولغة وبكونه مخلوقا اجتماعياً يسير وفق قانون أدبى أخلاق يعى ماضيه ويهيمن على مستقبله عن تدبر وبصيرة وادراك . ويشيد ميراثا خارجيا مستقلا عن كيانه الهيولية Germ-plasm ولكن دارون أقام الدليل بلا رحمة على انتسابه الى نوع سميانى Simian فطرى غامض تفرعت منه منذ مليونى عام تقريبا القردة الشبيهة بالانسان واتجهت اتجاها معينا بينما اتجه الانسان أو الهومينويد Homonoids فى اتجاه آخر

لقد أعطانا دارون صورة مقنعة لعالم فى النباتات والحيوانات أبداً يتطور وابتكر نظرية جديدة معقولة للعوامل التى تعمل فى التطور العضوى . وأظهر لنا بصورة حاسمة الصخرة التى نحتنا واقتطعنا منها والحفرة التى انتشلنا فى أعماقها ولكنه انما فعل ذلك ليتركنا وقد أوسعنا تشجيعا فبأى شىء غير هذا نحن مدينون لدارون

الابحاث التى تولدت عن مذهب دارون

لقد علم دارون الامم أن تفكر فى كل شىء على قاعدة النشوء والارتقاء . وتلك رابع خدماته التى حبانا بها . فلقد أظهر كيف أن المفتاح النشوئى يوافق جميع الابواب مهما تباينت — سواء أكانت بيولوجية أو بسيكولوجية أم كانت حيوانية أو انسانية فردية كانت أم كانت اجتماعية . وأقام الدليل على فائدة النظر الى صنوف الحقائق من ناحية النشوء والارتقاء

وليس كثيرا أن نقول إن العالم سلسلة من القواعد والمبادىء الجديدة للبحث فلقد تولدت كما يعرف كل انسان من الدراوينية ابحاث كثيرة تمت اليها بصلة القرابة والرحم مثل نشوء وارتقاء اللغات والنظم والفنون والعادات والاخلاق وغير ذلك مما لاحصر له . ولقد غرس داروين العادة النشوئية التى أصبحت اليوم تلازم سائر مناحى تفكيرنا على الاغلب .

وبهذه الطريقة أحدث تأثيراً فذاً في الفكر البشرى. مثال ذلك كتابه المعروف للقليلين والذى يسمى « تفسير الانفعالات » . فهذا الكتاب كان أساس علم البسيكولوجيا المقارن والبسيكولوجيا التناسلية .

ومما يثير العجب العاجب انك تلقى رجالا ونساء مضطغنين على داروين وينكرون أى صلة به بينما تراهم في الوقت نفسه نشوءيين الى أبلغ حد فى أبحاثهم الاجتماعية أو البسيكولوجيــة أو التاريخية أو الاثرية . ان وجهة النظر النشوئية قد أصبحت عادة فكرية عالمية والفضل فى ذلك راجع الى داروين . وبالطبع يجب ملاحظة ان هناك علماء أخذوا على عاتقهم تكملة عمل داروين كما انه قد جاء قبله علماء اشتغلوا بمذهب النشوء والارتقاء. وبالاضافة الى هذا الاستمرار فقدتم نجاح لايدحض في النظر الى الاشياء بالطريقة النشوئية .

عوالم جديدة

كثيرا ما كشف العلم عن عوالم جديدة خلال القرون المتعاقبة . فلقد كانت دنيا جديدة . تلك التى كشفها جاليليو حينما تنازلت الارض للشمس عن مكان الشرف على اعتبار انها مركز نظامنا الشمسى. وبدأ الانسان يعرف شيئا من معنى المجرة (درب التبانة) ولقد كشف نيوتن عن دنيا جديدة حينما وضع أعم قواعد الطبيعة وربط التفاحة الهاوية بالقمر السائر

ولما لم يعد المجهر اعجوبة في نظر الناس اماط اللثام عن دنيا مستورة خفية ولم يقتصر أمره على إظهار الغامض المعقد من الامور . فجعل العادى أكثر جلاء وأوضح معنى . كما كان الحال فى استكشاف مالبيجى للشعريات ذلك الاستكشاف الذى تمم وأكمل استكشاف هارفي للدورة الدموية . ولكن اماط اللثام عن دنيا

جديدة غير منتظرة من الكائنات الحية الدقيقة . مثل الخمائر والبكتيريا الحيوانية

وعلى هذا النحو ننظر الى سياحة داروين فوق ظهر سفينة بيجل لسياحة كولمبوس سواء بسوء. حيث انه اكتشف دنيا جديدة. دنيا متطورة . وفى الحق أنه اكتشف جانباً رائعاً فى جوانب عملية التطور . وبذلك انتقل نظار الانسان الى العالم فى حالة الجمود الى حالة الحركة

نسيج الحياة

لكن هناك طريقة أخرى جعل داروين بها العالم شيئا جديدا . فانه أظهر أكثر من أى عالم آخر من علماء التاريخ الطبيعى صلة المخلوقات الحية بعضها ببعض صلة وثيقة في نظام مايفطن بالحياة . فاننا مدينون له — وهذا هو الدين الخامس — برؤية نسيج الحياة . فالقطط لها صلة وثيقة بمحصول البرسيم ، ولأبى فصادة المائى علاقة بتربية الاغنام . وكم كانت هامة أبحاث داروين في تلقيح الازهار بواسطة الحشرات وفى تكيف النباتات آكلات اللحوم التى تقلب ظهر المجن للحيوانات بدرجة مدهشة وتسطو عليها فتفترسها .

ثم إنه أنفق لحظات حياته النفيسة فى اثبات أن ديدان الارض قد أخصبت معظم الاراضى الصالحة للزراعة . وأثبت الاهمية العلمية لدراسة تأثير أصل الطيور فى حياة النباتات والحيوانات . على أن أهم أعماله وأعظمها هو توضيحه البارع لما للتهذيب والانتخاب من أهمية عظمى . وبرهن على أنه ليس ثمة حيوان يعيش ويموت لنفسه وحدها دون غيره . فالعصفور لاتستطيع الهبوط الى الارض دون حداث هزة في دائرة فسيحة .

التهذيب والانتخاب

عند مانقول نيوتن يكون الصدى الذهنى (الجاذبية) وعند مانقول باستير يكون الصدى الذهنى (الميكروبات) وعندمانقول بيكارسيل يكون الصدى الذهنى (الراديوم) وكذلك عند ما نقول داروين يكون الصدى الذهنى (الانتخاب) .

أما ديننا السادس لداروين فهو أنه في وقت واحد مع الفريد مارسل وكس

قد أكشف سر الطبيعة المكشوف ونعنى به الانتخاب والتهذيب . وهكذا هو صوت الطبيعة الذى سمعه داروين واضحا جليا . « النزاع ، الجهاد ، النزاع لان التطور العضوى قصة تهذيب دقيقة قديمة العهد قصة عراك لاينتهى بحيث تبرز سائر الكفايات الصالحة وتهدم الحياة بهزات الخراب لتعود في شكل جديد واى فائدة »

حياة نبيلة

ان الحاجة ماسة في عصرنا هذا عصر المجتمعات والرخاء الى اعتراف جديد بالدين الذى لداروين عندنا. ودروين الذى رأى فى التطور العضوى شرحا بليغا على الموضوع الآتى . امتحن كل شىء واستبق الصالح.

والدين السابع الذى لداروين عندنا هو نموزج حياته الفضيلة . فان قليلا من حياة العظماء كانت خالية خلوا تاما من الجفاوة والضؤولة . ومما لاريب فيه انه كان بقطع النظر عن صحته سعيد الحظ من نواح كثيرة . وبذلك استطاع ان يكرس حياته ويقبل بكلياته على البحث دون ان يجد مايشوش باله أو يلهيه لكن الشىء الذى يبرز فى حياته واضح المعالم هى شغفه بالصدق . فلقد عمل بصبر ودأب وتواضع سعيا وراء الحقيقة ـ الحقيقة التي صنعت الشيء الكثير لتجعلنا أحرارا

فى الالحاد والايمان

رد على كاتب

الى صاحب العصور ....

قرأت في العددين الاخيرين من العصور حكايتين الحاد لبندلى أفندى البيلونى رمى فى الحكاية الاولى الى كشف القناع عن سبب الحاده. ورمى في الثانية الى تعريف الناس استعداده لنشر هذا الالحاد. وكنت لا أخالفه رأيا لولا سبق و بين القصد من هذا الالحاد وعما اذا كان بالامكان الوصول الى هذا القصد لانه كما تعرفون ان تعشق المبادىء شيء وتطبيقها على الحياة العلمية شيء آخر. والالحاد ما خرج عن كونه مبدأ له ما لغيره من المبادىء حسنات وسيئات .

قبل ان ابتدىء بانتقاد هاتين الحكايتين وقبل ان ترتسم صورة شخصيتين الاولى والدائمة في مخيلة البيلونى افندى أقول — إنى بعد كل اختبارى الطويل عرفت — لاأقول اعتقدت — ان الكائنات موحدة الاصل وان كل مانراه من الصور المتغايرة على سطح هذه الكرة يرجع لنظام التفرع وروح الزمان. وان كل الموجودات تعرف بالنسبة وان لاشيء حقيقي. وان الانسان مظهر من مظاهر الطبيعة العديدة تجرى عليه سنة الكون التى لاتتجزأ ويسود عليه طبقة من العوامل تكونت بمقتضي الضرورات الطبيعية والاحتياج المتتابع وان عصرنا هذا فى جغرافية - التطور البشرى - عصر المشاعر وهوأول درجة في سلم التفكير والتعقل -

فمن هذا يعرف انى لست ملحدا أعتقد بعدم وجود خالق حكيم يدبر الكائنات ولا دينا أعتقد بوجود هذا الخالق بل عارفا كيفية نشأت الكون وتفرعه . والاعتقاد شيء والمعرفة شيء آخر .

إن مصيبتنا الكبرى في هذه الايام انتشار زبدة علوم تفسرها من ذوى بعض العقول . . . تفسيرا معوجا ويخلق من هذا التفسير معتقدا جديدا يطرح في بحر هذه المعتقدات. و يزيد تبلبلها كأن مايوجد من الاختلافات والشرور من جراء اختلاف المعتقدات لايكفى بل نحن دائما فى حاجة لزيادة تعاستنا أكثر؟.

انى لاأعتبر الالحاد مع مافيه الصوابية الا معتقدا له من السنن والنواميس مالغيره من المعتقدات. وهو لايشفى غليل الانسان ولا يرد اليه طمأنينته ولا يبطل الحروب ولا يذهب بالشرور ولا يبدل حالة الانسان من تشاؤم وتفاؤل. ولا كما يقول البيلونى افندى يقتل روح التعصب ولا يتساهل عند مايأخذ صفة الاجماع ولا يحجم عن قتل مخالفيه عندماتسنح له الفرصة ـ هو معتقد ـ روح المعتقدات واحد ـ وما يسيطر على هذا المعتقد يسيطر على ذاك ولن نرى غير هذا فى هـذا العصر. والذى سيأتى بعده لان الانسان مازال ضمن دائرة الحياة الشعورية ـ

من هذه الوجهة فقط انتقد فكرة الالحاد، لان محبذيها يجعلونها دائماً ـ معرفة ـ ويوهمون الناس ان كل المفكرين يحبذونها ويستشهدون بما كتب دارون وسبنسر عن النشوء والارتقاء وما كتب هيكل وغيره من زعماء المادية عن وحدة الكون مع ان أولئك عرفوا شيئا وهؤلاء اعتقدوا. والفرق بين المعرفة والاعتقاد كبير احتى انه أكثر نسبة من لانهاية القضاء الى هذه الكرة الصغيرة.

وأيضا ليس هذا فقط بل ان تمجيدهم دائما فضائل الالحاد قد جعل البعض يتساءلون عما اذا كانت الاديان السائرة قد سهت عن وضع مثل تلك الفضائل مع ان الفرق بين فضائل الاديان السابقة وهذا الدين الجديد لايذكر. لان تعاليم الاديان السابقة حضت على التساهل والتسامح كما يبشرون به في هذا الدين الآن ولكن طبيعة الانسان أبت. كما ستأبى فيما لوساد هذا أيضا. ذلك وحقها ان تأبى لان الطبيعة أعدل من الانسان نظاما انما بدون أوهام لاتقدر البشرية. ان تداوم البقاء وهذا التساهل وهذه الفضائل أوهام تستغوى الناس ولكن لاتدخل أبدا في حياتهم العملية.

يمكن ان تكون نسبة الفضائل في الالحاد. أكثر مماهى فى بقية الاديان ولكن هـذا لايقوم حجة على ضرورة نشره، لان من الاديان السائدة ماتحتوى تعاليما سامية أكثر من غيرها، ومع كل ذلك لاتنتشر كثيرا وهذا يكفى لتبيين مركز الانسان في مطاليبه وأعماله.

ثم ولا يخفى على المفكر ان هذا الدين الجديد خطر من وجهة واحدة على الحياة

الاجتماعية. لانه يرمى الى تقوية الانانية الفردية عوضا عن تقوية الانانية الاجتماعية. فما يلقنه لتابعيه عدا عن مظهره الطبيعى يجعل الفرد لايهتم الا لنفسه وهنا « مسئله فيها نظر » لاننا لم نكن بهذه المدنية لولا الحياة الاجتماعية المرتكزة على الانانية الاجتماعية .

قبل ان أختم كلتى هذه أوجه نظر الاستاذ صاحب العصور الى شدة احتياجنا فى الشرق للفلسفة الايجابية philosophie positive لان تصيف العلوم وحده يكفل لنا صفاء الفكر واعلان النتيجة المطابقة للواقع فعسى ان يقدم على ترجمتها قريباً .

بيروت　　　　　　ابراهيم حداد

ثمار الفكر الغربي

مراجعات وتلخيص عن أحدث المؤلفات الأوروبية

من قبل آدم

تأليف الكاتب المعروف جاك لندن الانجليزى

***

ظلت الفكرة الدينية القديمة ثابتة في عقول الناس منذ أن تحرك الفكر الانسانى لأول مرة ينظر فى حقائق الاشياء ، حتى أوائل القرن التاسع عشر . فلما أن ارتكزت نظرية التطور الحديثة على أصولها العلمية ، بعد أن أصدر العلامة داروين كتابه أصل الانواع .وأشفعه بكتاب أصل الانسان ، انقلبت الفكرة في أصل الانسان.وأمحت الفكرة القديمة فى آدم على اعتبار انه أول انسان هبط من جنة الخلد الى الارض ، واعتقد العلماء أن الانسان حيوانى تطور على مدى الازمان، ورضى أهل الدين بالقول بأن آدم هو أول جيوان ناطق كلف من قبل السماء بأن يتبع أمراً وأن يرضى خالقه بأن يحترم نواهيه .

الكتاب موضوع في قالب قصص علمى يحملك على أن تحقق فى قراءته وأن تكب عليه ، في حين أنك تقرأ شرح حقائق علمية تقوم عليها أعوص الابحاث فى علم الحيوان والحياة وعلم النفس — أستغفر الله. بل النفسولوجيا على مذهب الاستاذ سلامه موسي — ولا تنتهى من قراءة الكتاب الا وتكون قد انطبعت في مخيلتك صورة واضحة من حياة الانسان في أوائل العصر الظرانى، تجمع لديك فكرة عامة عن النظامات الفطرية التى تطورت عنها نظامات المدنية الحديثة .

يبدأ المؤلف كلامه بشرح نظرية فى الوراثة هى نظرية الرجعى Atavism

أو Reversion كما يدعونها اصطلاحا ، غير أنه يضطر أن يطبق هذه النظرية ؛ ليستطيع أن يمضي في قصته العلمية على أساس ثابت ، على ظاهرة نفسية ، هي ظاهرة الاحلام . فيصور لك بطل الرواية شاباً في عاصمة من عواصم المدينة ؛ انتابته أحلام مفزعة . إذ كان يخيل اليه انه انتقل الى عصر ماقبل التاريخ ، او كما يقول العلماء العصر الشجرى ، وهو عصر يسبق العصر الحجرى عند ما بدأ الانسان يتطور عن الحيوان الاول الذى يعد حلقة تربط بين أحط السلالات البشرية الموجودة الآن و بين القرود العليا . و يرى فيما يرى النائم أنه استلقى على ظهره في عش صنع فى ملتف من أغصان شجرة كبيرة . وأن أباه وأمه كانا يتسلقان اليه أغصان الشجرة بمهارة ولباقة . ليأتياه بما يحتاج اليه من طعام . حتى اذا كبر واستطاع الحركة أخذا يمرنانه على كيفية التسلق يوماً بعد يوم ، فاستطاع بعد أيام عديدة أن يهبط الى الارض وأن يتسلق الى عشه بسهولة . وأخذ يجوب فى الغابة حول الشجرة التى كان فيها مهده الفطرى و يلعب مع أمثاله من الاطفال . واذ انفرد ذات يوم بنفسه يلعب و يمرح هاجمه نمر من النمور القديمة ذوات الانياب الحادة ، فاضطر أبوه أن يدافع عنه . فراح ضحية النمر وأصبح يتيما . وكان عطف أمه عليه كبيراً بعد أن فقدا عائلهما ، غير أن ضعفها كان سبباً فى أن تكون موضع الأذى في كثير من بقية أفراد السلالة ، فاضطرت أن تلجأ الى رجل غير أبيه يحميها من الأذى والشر ، ولكن هذا أنزل به من الاذى بقدر مادفع عن أمه من العدوان ، حتى إذا كان اصيل يوم وقد قام بينه و بين زوج أمه خلاف ، ضربه الزوج الجديد ضربا مبرحا على مرآى من امه وهى لاتحرك ساكنا ولاتظهر عليه عطفا ، وكان قد كبر وتحجزت تقاطيع جسمه فى قالب الفتوة واستبانت عضلاته ، ففر من وجه امه و بقى أياماً يأوى الى اغصان الاشجار و يتنقل من مكان الى مكان حتى بلغ يوماً حدود الغابة . فاشرف على سهل كبير متسع رأى عنده سلالة أخرى من السلالات البشرية تعيش فى الكهوف وكانت ذات مهارة فى تسلق الاشجار ، فتقدم اليهم في حذر وتؤودة ، وكان من امره بعد ذلك أن اصطحب بهم وآوى الى كهف مع شابين آخرين ، واخذ ثلاثتهم يتعاونون على القيام بما تتطلب الحياة من واجبات

ولم يكن الناس فى ذلك العهد بقادرين على التفاهم من طريق الكلام والنطق المفصل ذى المقاطعة اللغوية . بل كان كل ما يتفاهمون به عبارة عن عدة اصوات يخرجون واشارات يقوم بها الوجه واليدان ، وكانت كافية لان تسد حاجاتهم القليلة . ولم يكونوا يميزوا بين الامراء باسماء كما تفعل الان ، بل كانوا يميزون بينهم باظهر صفة يختص بها كل منهم ، بحيث تكون خارجة عن القياس ببعض الشيء

وكان فى هذه القبيلة الصغيرة رجل اختص بقسط من القوة البدنية والقسوة احترمه كل رجال القبيلة ونسائها وشبانها . وكان يضرب زوجاته ضرباً مبرحاً وربما قتل بعضهن ، فاذا اراد ان تكون له زوجة اخرى عمد الى زوجها فيقتله ويغتصبها اغتصابا . فتنقاد اليه صاغرة وكل افراد القبيلة ساكتين لا يستطيعون أن يحركوا ساكنا أو يبدون اعتراضا . وكان المتزوجون والمتزوجات اكثر تعرضا لاذاه من الشبان الذين لا يزالون بعيدين عن كسر الطبيعة . اذ تدعوهم الى الزواج وحفظ النوع . وعرف هذا الرجل عند افراد القبيلة بانه ذو العين الحمراء ، شدة بطشه وقوة مراسه

وخرج بطل قصتنا ذات يوم مع رفيقه الى غابة قريبة يمرحون ويلعبون . وقد تسلقوا اغصان الاشجار الباسقة ، وفيماهم على لهوهم هذا مر بالقرب منهم شيء اخترق الفضاء وهو يؤز أزيزاً شديدا ، ثم تلاه آخر واذا باحدهم يرسل صوت استغاثة وألم ويهوى من أعلى الشجرة الى الارض ، فلما أن بلغها رأى رفيقاه رجلا عجوزا فى يده قوس وسهام ، ومن حوله بضعة رجال أخذوا يحطمون رأس الرفيق التاعس الحظ بالاحجار ، ففر البطل ورفيقه الى شجرة ملتفة الاغصان كثيفة الاوراق ليتقيا سهام ذلك الصياد الماهر . وقضيا ليلتهما فى خوف مستمر بين زئير الاسود والنمور ، فاذا تنفس الصبح واشرقت الشمس . نزلا ليفوزا بالفرار الى كهفيهما وما كادا يخرجان الى حدود الغابة حتى مر بينهما سهم ارسله عليهم الصياد العجوز فلم يصبهما . ولكن سهما آخر استقر في فخذ رفيق بطلنا . فوقع على الارض مستغيثا وهنا ادركت البطل صفة انسانية هى صفه التضحيه الاخوية فارتد الى أخيه على الرغم من الخطر الشديد الذى كان يحف بهما ، وأخذ يعالج السهم حتى انتزعه

وكان الصيادون يجدون فى اقتفاء أثرها ، فاطلقا ساقيهما للريح حتى بلغا الكهف سالمين . وهنا يريد الكاتب أن يفرق ثلاث سلالات بشرية لكل منها صفاتها الخاصة بها. فالاولى تسكن الغابات وتبنى العشوش فى الاشجار . والثانية تعيش فى الكهوف. ولكنها تستطيع أن تتسلق الاشجار ، والثالثة تعيش على الارض وتعرف استعمال القوس والهمة ، فاستطاعت بذلك أن تتغلب على غيرها من السلالات البشرية ، وان أثر هذا التطور قد ظهر فيما بعد في غيرها من السلالات . فمنها ماعكف على الصيد البحرى. ومنها ماعكف على الزراعة في آخر صورة تقلب فيها تطور الجماعات الانسانية ، وهنا بدأ مانسميه المدنية ، لانها مشروطة على الاستقرار فى مكان. وقيام مدن أو قرى يعمل أهلها على الدفاع عنها ، دفاع أهل الكهوف عن كهوفهم وأهل الصيد عن قراهم التى كانوا يبنونها من الاغصان والاوراق.

وبينما كان بطلنا ورفيقه على شاطىء النهر القريب من كهوف قبيلتهم يشربان حمل البطل جذع شجرة والقاه فى الماء وركب فوقه وهو بعد متشبث ببعض أعشاب الشاطىء. وأخذ رفيقه فى مداعبه يدفع جذع الشجرة الى غمر الماء حتى أفلت الفرع من يد البطل وجذبه التيار الى عرض النهر . فاستغاث ولا مغيث. واستجار ولا مجير . وحمله الجزع يجرى به التيار بالقرب من الشاطىء ورفيقه عليه مشفق راغب في انقاذه ، يساير الجذع على الشاطىء ، حتى اذا فتقت الحيلة لرفيقه طريقا للخلاص وأخذ يضرب الماء بيديه ليدفع بالجذع نحو الشاطىء . فكر رفيقه فى أن يمدله عودا من الخشب يتشبث به ويجذبه به نحو البر . وهكذا أنقذ الرفيق رفيقه . غير أن هذا كان استكشافا جديداً . اذ عرف الانسان كيف يستطيع أن يذلل سطح الماء ويعبث بامواجها .

وأخذ الرفيقان يقومان كل يوم بنزهتهما البحرية . حتى اذا كان ذات يوم وقد هبت الرياح وعلت الامواج واشتد التيار وتعذر عليهما مقاومته . رمت بهما المقادير على شاطىء معشوشب خصيب تقوم عنده غابة كثيفة ، ولم يكادا يستقران على الشاطىء حتى عمدا الى الاشجار يتسلقانها . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب

فارتقيا ذروة شجرة عاليه. ملتفة الاغصان . وباتا ليلتهما يحتضن أحدهما الآخر طلباً للدفء والاطمئنان .

فاذا كان منتصف الليل والوحوش سارحة فى جوف الغابة تطلب فرأسها، سمعا تحت الشجرة التى كانا يأويان اليها حركة غير عادية ، واذا برجل يكب على قدح زناد يشعل هشيما يابساً ، ولم يكونا قد رأيا ناراً قبل الآن ، وأخذ الرجال يجمعون الحطب والنساء تزيد بها النار اتقادا .ففزعت الوحوش من مرآى النار المندلعة فى جوف الغابة الساكنة الهادئة ، وأخذوا جميعاً يصطلون ، فاذا ناموا قام أحدهم بالحراسة يزود النار بالوقود .

وعند تنفس الصبح جمع هؤلاء حكامهم وسهامهم وأقواسهم .وأخذوا يتغلغلون في جوف الغابة ، حتى اذا اختفت آثارهم نزل بطلنا ورفيقه الى النار يزيدونها بالوقود التهابا . ويلقون اليها بالاغصان اليابسة بغير حساب .فاتقدت وامتدت الى الاشجار الكثيرة تأكلها أكلا وتحطمها تحطيما ، ففزعا كل فزع وعمدا الى الهرب ويمما نحو السهل المنبسط عند آخر الغابة .

وبينما هما في هربهما مجدين .وقع نظرهما على فتاة بشرية لم تقع عينهما بعد على مثلها جمالا . فكانت أعلى جبهة وأوسع عيناً وأقل شعراً ، وأكثر استقامة لدى المشى . فتحركت في نفس البطل الميول الجنسية . وأخذ يتتبعها حتى ظفر بها ورضيت به واقتادها الى كهفه الصغير . ليعيشا معاً في حياة زوجية . واختص هو بالكهف دون رفيقه الذى قام على حراسة مدخله ، كما صنع هو مع رفيقه عند ماتزوج ، ثم عاد الى معايشته بعد ان ماتت زوجه .

وفيما هما قادمان ذات يوم الى مقر القبيلة علا الصياح وكثر النواح من جانب النساء ، وأخذ الرجال يدقون بأيديهم على صدورهم علامة على الغضب. تقاد نيران الحرب. واذا بنمر كبير مفترس أخذ يهاجم أهل القبيلة ليفوز منهم بفريسة يتبلغ بها . واجتمع عليه أهل القبيلة ، الرجال في الصف الاول والنساء فى الصف الثانى . يزودونهم بالاحجار الثقيلة يقذفونها عليه، فلم يستطع أمام الجهد المشترك أن ينال منهم منالا. وارتد الي الغابة مثخناً بالجراح .

فى هذه الحادثة تفسير لمذهب كرو بوتكن فى التعاضد المتبادل بين السلالات، وان التناحر على البقاء انما يقع بين الافراد و بين السلالات المتباينة فى النوع الواحد. ولكن التعاضد يقع بين السلات فى رفع أذى السلالات الاخرى . وكانت هذه الظاهرة الاجتماعية أقوى من سلالات النوع البشرى منها بين بقية السلالات .

ووقعت فى النهاية الطامة الكبرى . فقد هاجمت سلالة من القناص الذين يستعملون القوس والسهام مقر القبيلة فقتلت من قتلت منهم ، وفر الباقون. وكان البطل ممن فروا ، فعاش در وجه زماناً من جرف غابة من الغابات. حتى اذا الف قبيلة أخرى أخذ يتعلم منها كيف يوقد النار . وكيف يستعمل القوس والسهم ، وأخذ يختطف جراء الكلاب البرية من أوكارها تسلية به ولاولاده الصغار ، فأنس منهم من أنس وقتل من لم يأنس ، وكان هذا مبدأ تذليل الانسان للحيوان .

وسواء أظهر عند هذا الطور الارتقائى من آدم أم لم يظهر .فليس ذلك بذى شأن فى بحثنا هذا . بل ان الكاتب لم يقصد الا الى تصوير ظاهرات الحياة الانسانية فى حالاتها النظرية الاولى

انتاج وتجارة البيض

لو اهتم المصريون بانتاج البيض ونظموا طرق تجارته لنالوا من وراء ذلك ارباحا كثيرة . ولأجل تحسين الانتاج . يجب على وزارة الزراعة توزيع السلالات الاكثر ملائمة لجو القطر على المزارعين و إمدادهم أكبر كمية من البيض الحسن النوع والمطلوب في الاسواق المستهلكة له . وهذه العملية نظريات علمية متبعة في كثير من البلاد الزراعية

وانى سأتكلم اليوم عن موضوع الاتجار بالبيض وكيف يمكن للمزارع جنى الارباح المعقولة منه. فاولا يلاحظ ان الفلاح يبيع محصول دجاجه الى تجار القرى المحلية الذين يجمعونه لتجار الجملة المصدرين بارخص ثمن. لانه يبيع كميات قليلة بين وقت وآخر ظانا ان أى مبلغ يدفع عنه يعتبر كما لو كان أتاه من غير جهد . مع ان أرباح هذا الصنف كبيرة بالنسبة الى غيرها من المحاصل الزراعية. وتعود تجارب بفوائد جمة على صغار المزارعين بوجه خاص. فقد يربحون منه أضعاف ربحهم الحاضر

ولكي تعود تجارة البيض بارباح حسنة . يجب ارساله الى السوق طازجا من أجل الاستهلاك. ولا يتيسر ذلك الا اذا كانت الكميات كبيرة . والا اذا بعد الوسطاء الذين يعملون لاجل الكسب وبالفعل يجنون لانفسهم جل الربح

والحل الوحيد الى الوصول الى هذه الغاية. هو تعاون منتجى البيض مع بعضهم لبيعه معا . ولا يتم ذلك الا بانشاء جمعية تعاونية لتصريفه. ويكون الفرض من هذه الجمعية بيع محصول البيض على حسابها والعمل على اصلاح طريقة انتاجه باستجلاب الانواع الجيدة من الدواجن ومنع الطيور الكبيرة السن من ان تبيض وذلك اما بذبحها أو بتخصيصها لعملية الرقاد

فالجمعية تشترى السلالات الجيدة من الدجاج وتوزعها بسعر الشراء على أعضائها مشترطة ان تربط برجل كل دجاجة شريطا يدل لونه على سنها. حتى اذا ما بلغت الدجاجة أربع سنوات عدت غير صالحة لانتاج البيض فتذبح مثلا

كذلك تعمل الجمعية المذكورة على ايقاف أعضائها على أحدث طرق التغذية والأيواء ودفع الأمراض

ولا تحتاج هده الجمعيات الى رأس مال كبير . فقيمة السهم فيها يتراوح عادة بين عشرة قروش وجنيها واحدا مع مسئولية تتفاوت بين ٥٠ قرشا و ٢٥٠ قرشا

كذلك يأخذون رسم دخول ممن ينتمى اليها يتفاوت بين ٥ و ١٥ قرش

ولاجل أن تفلح الجمعية . يجب ان تكون قادرة على جمع حوالى ٥٠٠ بيضة على الاقل من أعضائها فى الاسبوع . ويستحسن ان تكون منطقة أعمال كل جمعية صغيرة المساحة . لانه يتوقف على ذلك طزاجة البيض وسرعة جمعه

ويجمع البيض من الاعضاء دفعة أو دفعتين كل اسبوع . فينبه على الاعضاء بارسال محصولهم منه الى مكان معين ليأخذه الشخص الموكل بالجمع . ويجب على كل شخص أن يختم البيض الذى يقدمه للجمعية بختم عليه رقم عضويته . فلما يستلم مندوب الجمعية ما يورده العضو . يزنه و يقيد فى دفتر العضو وزن البيض المقدم . لاعدده (لان البيض يتفاوت فى الحجم) وكذلك يرصد الوزن في الدفتر الخاص بالجمعية أمام اسم العضو . وعندما ينتهى من عملية الجمع يختم البيض بختم الجمعية الخاص ايضا . وفيه التاريخ . و بعد ذلك تفحص كل بيضة على المصباح الفاحص للتثبت من طزاجته . فاذا وجدت بيضة غير طازجة ردت الى صاحبها وضربت عليه غرامة مقدارها قرش أو نصف قرش على البيضة الفاسدة

ثم يوضع البيض فى صناديق من الورق المقوى بالدسته أو بأضعافها . وهذه ترسل الى الزبائن في منازلهم أو الى المطاعم . وأما البيض المطلوب تصديره فيوضع في سلال متشابكة الهيكل كل مائة أو مضاعفاتها سلة واحدة . ويستحسن أن لا تزيد محتويات السلة الواحدة مهما كانت الحال عن خمسمائة بيضه حتى لا يتكسر البيض من الضغط .

فاذا انتظمت عملية توريد البيض الطازج . يمكن ايجاد أسواق لاستهلاكه مع وجوب ملاحظة منع كل سبب للشكوى وتلافي ما يدعو الى ذلك .

وتجري الجمعية محاسبة أعضائها شهرياً على أساس وزن ما وردوه لها كلا

منهم . وذلك بعد خصم المصاريف النثرية الناتجة من عمليتي الجمع والتوزيع . و بعد الاحتفاظ أيضا على نسبة جزئية من ثمن البيع لايجاد احتياطي لدفع الطوارئ التى قد تواجهها الجمعية

ويعطى للشخص الذى يجمع البيض عمولة عن كل الف واحدة ، وتبلغ هذه العمولة فى المتوسط عشرة قروش ، هذا اذا قام بعملية الفرز أيضا ، والا فيعطى خمسة قروش فقط على كل الف بيضة يجمعها

ومن صالح هـذه الجمعيات ان تتحد بدورها معا . فتكون اتحاداً يمدها بالصناديق وبالاختام والمصابيح الفاحصة. ومن عمل هذا الاتحاد التصدير الذى يأخذ عنه عمولة مقدارها ٥ في المائة . وكذلك من عمله البحث عن طرق استهلاك المحصول والاشراف على عملية التوزيع . واليه ترسل الطلبات من المستهلكين وهو يحولها على أقرب جمعية لارسال المطلوب

اقتصادى

فهرست